

اقرأ

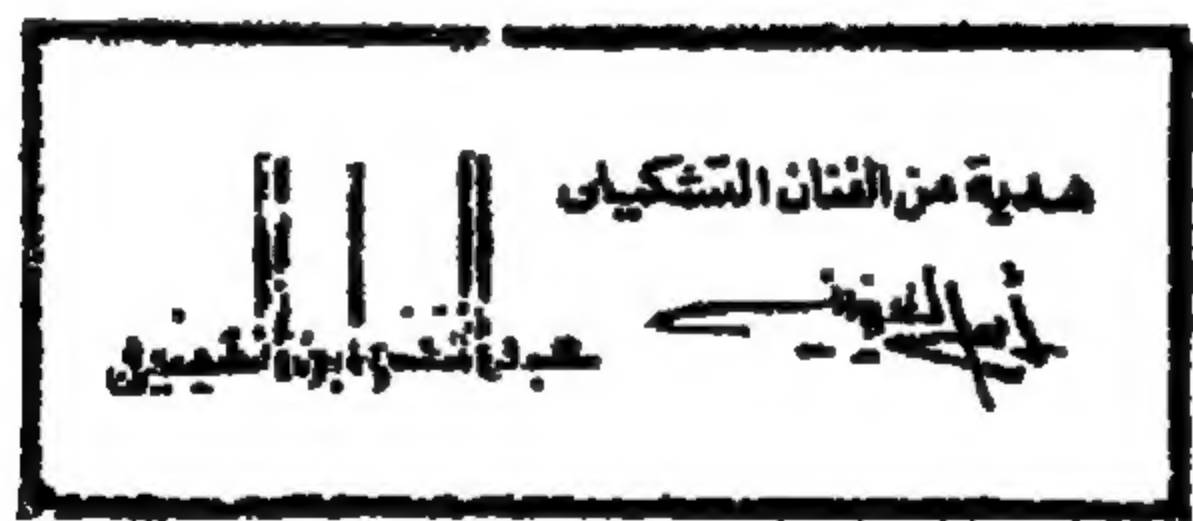
الجوارى



الدكتور هبوز عبد النور

دار المعارف بمصر

المجوارى



جَبَّور عبد النور

الجواری

الطبعة الثانية

٦٠

اقرأ

دار المعارف بمصر

اقرأ ٦٠ — الطبعة الثانية

ملترم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج.ع. ٢٠٠٤

القدر العربي

جنة العربي

أحب العربي المرأة حبا شديداً لا تدانيه عاطفة أخرى من حيث العمق والعنف ، وأسرف في ذلك إسرافاً عظيماً ، فجعل منها ريحانة لقلبه في دنياه ، ونعيماً مقيماً في أخراه . ولم يصبُ إلى المجد والسؤدد صبوته إليها . فكانت المرأة الجميلة جنته التي يحلم بها ، ويضتحى من أجلها بكثير من راحته ، ويستشهد في سبيلها باسم راضياً ، يأخذ من أجلها بالزهد أحياناً . فنعيمه عبارة عن عالم وسيع أنيق ، فيه من الطبيعة المعتدلة المناخ أروع مشاهد ، وفيه من النساء البارعات الجمال أقصى ما يبلغه خيال الشاعر المبدع . ومن العدل القول إن العربي الذي تمثل جنته آهلة بالخور العين ، الناعسات الطرف ، كأنهن الدر المكنون ، المطهرات العفيفات ، لهو رجل بلغ حبه المرأة مبلغاً عظيماً حقاً .

إن إكثار الجاهلي من عدد النسوة في خيمته أو منزله ، ثم تعدد الزوجات والسراري في الإسلام ، كل هذا مظهر من

مظاهر التدله العنيف. ولعله أيضاً وجه من وجوه التقيد بالأساليب الحضارية التي أخذت بها الأمم الغالبة أيام المصريين والبابليين والآشوريين والفرس والإغريق والرومان. وللعرب بعض العذر في ذلك، لتزول القسم الأكبر منهم في منطقة جغرافية ملتهبة الأرض والسماء، تنضج فيها المرأة بسرعة كما تنضج الأثمار النادرة التي تزكو هناك.

الطبيعة سريعة العمل، جمة النشاط، كما هي العادة في البلدان الحارة، فيقصر الزمن الذي يفرق بين أوائل النضج وأواخره، ويذبل الحمل باكراً لتراوح شباب المرأة بين الخامسة عشرة والثلاثين^(١)، ولتلاشى هذا الشباب بعد ذلك وأخذه بالأفول. فتبدأ الفتنة بالحبو عندئذ، إلى أن تصبح أثراً بعد عين في الأربعين، فتتحول المرأة إلى جدة أو مربية أو قينة من قينات المنزل، تعمل في تربيته والسهر على الطعام والنظافة، ويزهد الرجل في محاسنها الزائلة، ويتطلع جاهداً إلى ما يروى ظمأه إلى الحمل، أو يكون قد بدأ بالاستقاء من منابع الحسن قبل ذلك.

كان أفول العرييات الأصل أو المولد بطيئاً بالنسبة إلى الغريبات الأجنبية اللواتي ولدن أو نشأن في البلدان المعتدلة

(١) عيون الأخبار ج ٤ ص ٤٧.

أو الباردة . فإن تهافت هؤلاء كان خاطفاً ، يسرع الذبول إلى بشراتهم الصافية ، ويدب الحمول في مفاصلهم ، ويأخذ العرق بتخديد وجوههم ، وتترهل أجسامهم ، فتعنى على قسماهم ، ويذبلن ذبول الوردة المقطوعة من منبتها .

حدود الجمال

أحب العرب الجمال مطلقاً ، لأن تذوقهم الحسن ، كتذوقهم الفنون الجميلة عامة والشعر خاصة ، يتفقت من التخصص ، يحسون بالحلاوة والعذوبة واللطافة إحساساً غامضاً لا يقيد به تحديد ، ولا تحصره تخوم . وتختلف أقيستهم باختلاف الأشخاص ، لأن الجمال اعتبار ذاتي أو احساس داخلي فردي ، والعرب كسواهم من الشعوب التي أغرمت بالجمال ، تذوقوه غامضاً غير محدود ، فلم يفسدوا مفاتن الطبيعة بتهاويل الأوزان والألوان والأبعاد . غير أنهم تعارفوا على بعض شروطه ، فجعلوا منها أصولاً عامة ، وألحقوا بها الكثير من الفروع التي تقتضيها الأذواق الفردية .

في كتب الأدب صفحات عديدة عن هذه الأصول والفروع ، فلا يكتمل مصنف منها ما لم يضم بين دفتيه بعضها شعراً أو نثراً ، مقتبساً من أساطين الأدب ، أو منقولاً عن الاختصاصيين

في فنون الجمال الذين خبروه نظرياً وعملياً ، وأدركوا مدى كل صفة من الصفات وميزة من الميزات .

يؤثرون العبلاء الجسم ، ولا يقبلون على الأجسام الرقيقة النحيلة الخفيفة الوركين ، أو ما يسمونها الزلاء . لأن نحافة الوركين في نظر الخبراء منهم من الصفات المكروهة التي تنقص من أثمان الجوارى ، وتشيع في حب الأزواج لزوجاتهم شيئاً من الفتور . وأحبهم النحيلات الأعلى الجسيمات الأدنى ، أو كما يقولون ، اللواتي أعلاهن قضيب وأسفلهن كتيب ، أو من قال فيهن المغنى إسحق الموصلى :

ظباء كاليعافير كنوس في المقاصير
وأدبرن بأعجاز كأوساط الزنابير (١)

وغالوا في كره النحيفات ، حتى استعاذ الشاعر بالله منهن ، فقال :

أعوذ بالله من زلاء فاحشة كأنما نيط ثوبها على عود (٢)
كما أسرفوا في مدح الثقيلات الردف ، حتى بلغوا الإعجاز في ذلك ، وجاؤوا بما تأنف منه الأذواق ، ويأخذ المعاصرون على أنه من وجوه الهزل والسخرية . فن غرائب المخلوقات التي

(١) نهاية الأرب ج ٢ ص ١٠٠ .

(٢) عيون الأخبار ج ٤ ص ٣٣ .

تستحق أن تكون أعجوبة العصور تلك الجارية التي فتن بها
صاحبها فقال فيها :

من رأى مثل حبتى تشبه البدر إذ بدا
تدخل اليوم ثم تدخل أردافها غدا^(١)
وفي اعتقادنا أن سواد العرب لم يشاطروا شاعرنا هذا في فهمه
الجمال وتذوقه هذا اللون العجيب المعجز ، بل كانوا ، كما قدمنا ،
يؤثرون العباء^(٢) ، ويفضل الجهابذة منهم المجدولة الجسم ،
ويقدمونها على سواها ، ويطلب القيانون في هذا النوع
الأثمان الباهظة لأنها الزى الشائع المحبب إلى النفوس . والمجدولة من
النساء ، في منزلة بين السمينه والمشوقة ، ولا بد أن تكون
كاسية العظام والعروق في غير ترهل ، ملساء الجلد بحيث تزلق
اليد عنها .

البيضاء المفضلة

أما وقد دخلنا الخدر ، وأقلقنا على العربي راحته ، وأخذنا
نتفحص ما في كناسه من ملاحه وحلاوة ، وأدركنا إدراكاً
عاماً أية طلعة يفضل صاحبنا ، فلا بأس ، وقد أسأنا إليه في

(١) نهاية الأرب ج ٢ ص ٩٩ .

(٢) رسائل الجاحظ ٢٧٤ — ٢٧٥ .

مبأذله ، أن نتفحص هذه المرأة عن كذب ، وتبين تقاسيم
الجمال فيها جزءاً جزءاً وعضواً عضواً تاركين ما لا يسمح لنا
المكان بعرضه وتفصيله .

العربي الأسمر يفضل البيض من الجوارى ، ولا سيما
الرقاقات البشرة ، الصافيات اللون ، اللواتي يضرب لونهن بالغداة
إلى الحمرة وبالعشى إلى الصفرة ، وخص السمر والسود
أحياناً بالخدمة والسعى بين المنزل والسوق . والبيض الصففر
اللواتي جن بهن كن كثيرات العدد ، بل هن الغالبات بينهن ،
يحتفظن بظل الحدر ، فلا يتعرضن لأشعة الشمس المحرقة التي
تحيلهن إلى السمرة . وليس تهالك النساء على الظل بعيد عنا ،
فقد كن يتهربن من الشمس ، وما تركه في جلودهن من آثار
فضاحة ، ويؤثرن الفئء ، فسراديب بغداد الظليلة الرطبة كانت
أحب إليهن من الخيوط الذهبية التي تقطرها الشمس خلال
سعف النخيل ، وكان لكل منهم شمس تضيء نهاره تهديه طريقه
في مضطرب حياته الكادحة ، وشمس أو شمس ينجبها في
الحدر لتبهر له ليله ، وتشيع في نفسه وجسمه الدفء . ولا شك
أن الناثر الذي وصف إحداهن قد أجاد في تمثيل ما يجب
العربي عند ما قال : جلده من لؤلؤ رطب ، مع رائحة المسك
الأذفر ، في كل عضو شمس طالعة .

غير أننا نسيء إلى الحقيقة إذا زعمنا أن العرب جميعاً كانوا
يفضلون البيض ، فأمهات الفاتحين وزوجاتهم وأخواتهم
وبناتهم كن سمراً ، تشع في عيونهن آمال المستقبل الطالع ،
وأحلام الغد المشرق ، ولكن البيض كن بضاعة جديدة ،
ولكل جديد بهجة ومقام ، وإخواننا العرب يودون أن تمتزج
سمرة الجزيرة ببقى الشمال .

لعل كثيرين قرأوا ما دار بين البيض والسمر من
محاورات طريفة في حلقات الأدب أو مجالس المجون ، حيث
يتفنن كل فريق في إظهار فضائله ، وعيوب خصمه . وقد
أعجبنا ببراعة العرض ، ودقة الحجج في ذلك الجدل الذى
يعنف أحياناً بين الجنس اللطيف في حضرة الخليفة أو الأمير أو
المولى ، إلى أن ينتصر أحدهما بنكتة بارعة ، أو بيت من الشعر ،
فيكافئ السيد جاريته المنتصرة ببدة من المال ، ويطيب خاطر
المندحرة ببدة أخرى . فالمشادة عنيفة بين السمرة والبياض ، وهى
خصومة لمّا تنته ، ولن تنهى لأنهما لوانان من الجمال ، ليس
أحب من أحدهما إلا الآخر .

السوداء المستلطفة

غير أن هناك لوناً ثالثاً من الجمال لا يخطر لنا على بال ،

هو اللون الأسود الذى تسبغه الطبيعة على الزنجيات أو على الأقوام
البيض التى طال مكثها فى الأقاليم الحارة . فقد فتن كثير من
العرب بالسود ، وكان لمن شعراؤهم والمعجبون بهن ،
وارتقت بعضهن إلى مكانة رفيعة فى المجتمع . وقد قال الشاعر
فى غانية سوداء :

أشبهك المسك وأشبهته قائمة فى لونه بقاعده
لا شك إذ لونكما واحد أنكما من طينة واحدة (١)
وهذا المسك والطيب هما من خصائص السود ، فكان
أجسامهن صيغت منهما وحدهما ، لذلك تردد هذا المعنى
فى كل ما نظم فيهن ، منه ما قاله بشار فى جاريتيه :
وغادة سوداء . براءة كالماء فى طيب وفى لين
كأنها صيغت لمن نالها من عنبر بالمسك معجون (٢)
وهذان الشاعران مقتصدان فى حب السود ، لأنهما لا
يزهدان فى البياض والسمره ، ولكن المغالاة دفعت آخر إلى
القول :

ومن يك معجباً بينات كسرى فإنى معجب بينات حام (٣)

(١) نهاية الأرب ج ٢ ص ٣٨ .

(٢) الأغاني ج ٣ ص ١٩٣ .

(٣) عيون الأخبار ج ٤ ص ٤٠ .

وثانياً إلى القول :

أحب لحبها السودان حتى أحب لحبها سود الكلاب (١)
كان لرواج سوقهن ، وإقبال الرجال عليهن ، ولغرام الشعراء
بهن أن أخذن بالتأنق ، وعمدن إلى التصنع أسوة بشقيقاتهن
البيض والسمر . فقلدنهن في كل شيء حتى في الاكتحال ،
رغم أن الكحل لا يبدو عليهن لسواد بشرتهن ، مما دفع ظريفاً
من الشعراء إلى القول في إحداهن :

كأنها والكحل في مرودها تكحل عينها ببعض جلدها (٢)
وهكذا نرى في سوق الجمال ألواناً وأشكالاً ، ولكل منها
ميزة خاصة ، وطلاب متهاكون ، بل تقرب من الواقع إذا
قلنا إن كثيراً من الحدود العربية كانت تضم كل هذه الألوان ،
وما يتشعب منها من بياض ممزوج بالحمرة ، إلى سمرة تقرب
من البياض ، إلى صفرة سنديّة وصينية ومغولية . فإن مائدة
الجمال التي تناول منها العربي غذاءه متسعة الأطراف ، شاسعة
الأبعاد ، بوسعه أن يأخذ منها ما يروق لذوقه العام ، ولرغبته
الطارئة . عرف لكل واحدة من هؤلاء النسوة فضلها وسرحلاوتها .
وشهد ما بينهن من عداوة ، وما في صدورهن من تحاسد وتنافس

(١) عيون الأخبار ج ٤ ص ٤٣ .

(٢) عيون الأخبار ج ٤ ص ٤١ .

على اكتساب عطفه ، وهو راض بهن جميعاً ، وبما هن عليه
من تسابق في إرضائه والفوز بعطفه . فإن هذا التحاسد كان
يدفعهن إلى تحويل كيدهن عنه إلى بعضهن ، وإلى التنافس
في إظهار مفاتن جمالهن . وفي كلا الحالين يفوز السيد المولى
براحة البال وكمال المتعة .

الليل المنسدل

إن الطبايق الذي أغرم به الشعراء في جميع عهودهم ، وسعوا
وراءه جهدهم حتى أضلهم أحياناً المعاني السامية ، فاكثفوا
بالتزواج اللفظي ، هذا الطبايق الشعري نجد له أثراً في فهم العربي
جمال المرأة . فليس أحب إليه من تلك التي يتلاقى فيها النهار
بوضحه ، والليل بقتومته : البشرة البيضاء الناصعة ، والشعر
الفاحم . ففي تآلف هذين اللونين وتجاورهما صورة فاتنة تؤلف
أبرع المشاهد وأحبها إليه . وأفضل ما يشبهه هو انسداد هذا الشعر
الفاحم الطويل على الجسم البض . يلف بعضه بغلالته القائمة ،
فينصع يياض ما تبقى منه . وتنجلي أمامه الصورة التي مثلها
الشاعر بقوله :

بيضاء تسحب من قيام شعرها وتغيب فيه وهو جثل أسحم



فكأنها فيه نهار ساطع وكأنه ليل عليها مظلم^(١)
 وهذا الشعر المنسدل لا يحجب أحياناً صاحبه حسب ، بل
 يغزر ويطول ، وتعني به الماشطات حتى يستر أحياناً حاملته
 ومحبيها ، كما حدث للشاعر القائل :

نشرت على ذوائباً من شعرها حذر الكواشح والعدو المحقق
 فكأنني وكأنها وكأنه صبحان باتا تحت ليل مطبق^(٢)
 وتمثيل الشعر بالليل قديم العهد ، يرقى إلى أبعد من الشعر
 العربي ، ولا يزال يسيل على أقلام الناظمين إلى الآن ، ومنهم
 أحمد شوقي القائل :

« ودخلت في ليلين فرعك والدجى »

ولعله استعار التشبيه واللفظ من القدماء ، بل الأصح القول
 استقاه من قول شاعر قصي العهد معروف بابن المنذر ، جاء
 فيه :

فأمسيت في ليلين بالشعر والدجى

وشمسين من خمر ونخد حبيب^(٣)

كان الشعر يصفّر ثلاث ذوائب تنسدل على الظهر ، وتسمى

(١) عيون الأخبار ج ٤ ص ٢٧ .

(٢) نهاية الأرب ج ٢ ص ١٩ .

(٣) نهاية الأرب ج ٢ ص ٢٠ .

غدائر ، وتطول أحياناً حتى تبلغ موطأ القدمين ، كما قال الشاعر :
دعت خلاخيلها ذوائبها فجئن من فرقها إلى القدم (١)
وهو عادة ناعم الملمس سبط كث ، تنفق صاحبه في
تسريحه وتطييبه قسماً من وقتها ، وتغالي في ضفره وتنسيقه ل يبدو
فتنة للناظرين .

الغلاميات

غير أن الجوارى اللائي عرفهن العهد العباسي ، وجئن بعد
أفول الذوق العربي الخالص ، أخذن بالسطو على هذا الليل
المنسدل تقليماً وتشديداً ، متشبهات بالفتيان ، وهن المطمومات
الشعر المسميات بالغلاميات : وتعداهن هذا الزى إلى الحرائر
في قصور الخلفاء والأمراء والقواد ، فأخذت المرأة عهدئذ بقص
الدواة إلى مستوى الرقبة ، وبمد الوفرة حول الأذن والعقرب على
الجبين ، أو برسم طرة عليه . وذهب بعضهن إلى رفع شعورهن
ورسم هياث متعددة ، وجعلن حول رؤوسهن عصابة مزركشة
بالألوان ، وكتبن عليها بالخيوط الذهبية أو الفضية شعراً أو آية
كريمة . وأكثرهن يؤثرن الشعر الغزلي تقرباً من موالين ومغالة
في الفتنة ، وقد رسم أحدهم على عصابة جارية له البيتين التاليين :

تمت ! وتم الحسن في وجهها فكل شيء ما سواها محال
للناس في الشهر هلال ولي في وجهها كل صباح هلال
ويجعل بعضهم في عصابات الجوارى دراً ، ينثرونه بأشكال
هندسية أو ينسجون به خطوطاً وحروفاً وكلمات . ويجد الشعراء
في مثل هذه العصابات موضوعاً شائقاً للنظم والغزل ، فيرون
مثلاً أن الدر يزدان بالوجه الذي تحته كقول أحدهم :

وإذا الدر زان حسن وجوه كان للدر حسن وجهك زينا (١)
وغالين أحياناً في هذه العصابات المزركشة المعرشة بالرسوم
والخطوط ، وفي رفع شعورهن تاجاً فوق مفارقهن ، مما أثار
المحافظات ، فأعملن ألسنتهن في النقد والتقريع . كتلك الأعرابية
التي دخلت على حمدونة بنت الرشيد . فلما خرجت سئلت
عنها فقالت : « وما حمدونة . . . والله لقد رأيتها ، وما رأيت
طائلاً . كأن بطنها قرية . وكأن ثديها دبة . وكأن . . . وكأن
وجهها وجه ديك قد نقش عفريته ، يقاتل ديكاً » (٢) .

وأعرايتنا هذه التي وفدت على حمدونة المترفة الغارقة في فنون
الرخاء والأزياء تمثل أفضل تمثيل المدرسة النسائية المحافظة ،
كما أن ابنة الخليفة الرشيد ترمز إلى المدرسة المتطرفة التي تذهب

(١) نهاية الأرب ج ٢ ص ٣٤ .

(٢) عيون الأخبار ج ٤ ص ٣٩ .

فى الغواية والتجديد كل مذهب . ولقد تزوج المتوكل من قرشية هى ريمة بنت العباس بن على فسألها أن تطم شعرها وتشبه بالحوارى المملوكات فأبت عليه ، فهددها بالطلاق ، فاختارت الفرقة على اتباع الأساليب الدخيلة (١).

التجمل

عمدت الحوارى إلى أساليب اصطناعية متعددة فى إظهار جمالهن ، منها العناية بالحواجب وتدقيقها وترقيقها ومدها وإحداث البلج بالإفراج بين الحاجبين ، لأن العرب كانوا يحصون ذلك فى شروط الجمال . وأدت الوسائل التجميلية إلى إخفاء العيوب التى تختص بها الحواجب من قرن ، أى اتصال الحاجبين ، وزيب ، أى كثرة الشعر فىهما ، ومعط ، أى تساقط الشعر عن بعض أجزائهما ، واستعاضت بعض النسوة دقيق الكحل عن الشعيرات المتهافتات ، مما يدل على المستوى الذى بلغه فن التجميل آنذاك بعد أن نقلت كل واحدة من هؤلاء الحلييات أسرارها عن قومها ، وأضافت ما تعرفه إلى حيل ريفقاتها وأساليبهن . أما العيون التى استرعت أنظار الشعراء ، وانتباه الاختصاصيين فى فنون الجمال فهى الدعجاء ، أى الوسيلة الشديدة السواد ،

القائمة الأهذاب بدون كحل ، الصافية الحدة التي تبدو وكأنها
تغالب النوم في نعاسها الدائم ، وألتي قال عنها أبو نواس :
ضعيفة كر الطرف تحسب أنها

قريبة عهد بالإفاقة من سقم (١)
نغالى إذا شئنا تتبع المرأة فى كل ما كانت تقوم به لإبراز
محاسنها ، ولكننا نظلمها إذا زعمنا أنها أهملت نفسها ، ولم تكن
بإظهار ما لديها فى أفن مطلع وأبهى أسلوب . مما عرفته فرشاة
للأسنان طبيعية تفوق فائدة ونظافة ما نستعمله فى منازلنا ،
وتنبت إلى السواك المأخوذ من الأراك ، فاستخدمته فى تنظيف
أسنانها وإخراج ما علق بينها من بقايا الطعام . ولعل بعضنا
قد ساعدهم الحظ على استعمال هذه الطريقة القديمة العهد
فتبين لهم أن السواك لا يقل نفعا عن فرشاة المصنوعة من العظم
أو النيلون أو وبر الخنزير . وكان من جراء ذلك أن فن الشعراء
بشجر الأراك الذى تأخذ منه الحبيبة سواكها ، فتمنوا أن يكونوا
واحدة منها ، اللهم ما يتقدم الأسنان . وتناقلوا الأحاديث عنها ،
منها قول الشاعر :

نقل الأراك بأن ريقة ثغره . من قهوة مزجت بماء الكوثر (٢)

(١) نهاية الأرب ج ٢ ص ٥١ .

(٢) نهاية الأرب ج ٢ ص ٦٨ .

وقول الآخر :

أقول لمسواك الحبيب لك الهنا بلثم فم ما ناله ثغر عاشق (١)
أما شروط الحسن في هذه الناحية من المرأة فلا تختلف عنها
في الوقت الحاضر من رقة الأسنان واستوائها ، أو الشنب كما
يقولون ، وحسن تنضيدها واتساقها . غير أنهم كانوا يستحبون
التفليج ، وهو الانفراج القليل بينها من غير تباعد مع المحافظة
على الحسن والاستواء والبياض وما سلف من الصفات .

ومن الجمال الزائل الذي لا تأبه له اليوم ، وكان له طلابه
عهد ذلك ، الحال الذي ينبت في الخد . فقد أحرق كثيراً
من المهج ، وأوحى العديد من المقاطع الشعرية . والشعراء
سريعوا التأثير والالتهاب ، يثورون لأتفه الأمور ، لبعض شعيرات
تظهر في الخد . ومن العدل القول إن بعضهم اهتدى إلى تشبيهات
لا بأس بها ، وإن كانت بادية التصنع ، كقول أحدهم :

كأن خديه ديناران قد وزنا وحرر الصير في الوزن واحتاطا
فخف إحداهما عن وزن صاحبه

فحط فوق الذي قد خف قيراطا (٢)

ولسنا نعجب لتحول الأذواق ، فقد رأى بعضهم آنذاك في

(١) نهاية الأرب ج ٢ ص ٦٧

(٢) نهاية الأرب ج ٢ ص ٧٩

الحدري الذي سطا على وجه الحبيبة أثراً من آثار الجمال كقول
شاعرهم :

أيها العائبون وجهاً مليحاً شر الحسن فيه نبذ خدوش
أي أفق بها بغير نجوم أي ثوب زها بغير نقوش (١)

الرقيق

مصادرهن

من الثابت أن العرب عرفوا الجوارى قبل الإسلام ، وأنه كان لأثرياء قريش وزعمائهم بعض منهن ينصرفن إلى الغناء أو إلى الأعمال التي قامت بها الجوارى بعد ذلك في قصور المسلمين .

كان العربي عهدئذ ينظر إلى المرأة كما ينظر إلى أى متاع آخر من ريش أو ما شية أو مال . فإذا غزا جاره ، وتغلب عليه ساق أنعامه ، وحمل ذراريه ونساءه ، وجعل الجميع في خيمته ، وتصرف بهم كما يتصرف بالأسلاب الحربية . ونظر بعض الأعراب الجاهليين إلى جميع نسائهم الحرائر والمستعبدات نظرة استصغار واحتقار . فإذا توفي الوالد استولى ابنه الأكبر على نسائه ، وأصبحن له زوجات . غير أن الأم التي أنجبته كانت تنجو من تنفيذ هذه الشريعة الجائرة . وكان زواج المتعة شائعاً بين رجال القوافل بنوع خاص ، فيجمع الرجل في خيامه أو منزله ما شاء من النساء دون عد ، ويزور عنهن عند ما يريد ، أو تصرفه المرأة

بتحويل باب خيمتها ، فيدرك الزوج أن العهد انبترينهما ،
فيسعى إلى خيمة أخرى .

قامت الفتوح التي رافقت ظهور الإسلام مقام الغزوات
في الحصول على السبايا . فإذا تغلب العرب على عدوهم في ساحة
القتال ، ودخلوا دياره عنوة وقهراً ، ولم تعين شروط الفتح
يعتبرون البلاد المفتوحة ملكاً لهم ، بما فيها من أرض ومخاريق
وشيوخ وأولاد ونساء . يتصرفون بهم تصرف المالك
بملكه . فكل من يقع في أيديهم من بنات المخاريق ونسائهم ،
وإن كان ، من الأسر المالكة ، يصبحن إماء لهم ، ينقلونهن
إلى بلادهم مع الأسلاب ويتوزعنهن بينهم ، ويحولنهن إلى
منازلهم حيث يصرفونهن إلى ما يشاؤون من الأعمال . وقد أسر
بعض الجند العربي الزاحف على بلاد فارس في أيام عمر بنات
يزدجرد بن شهر يار بن كسرى ، وسبوهن وأرسلوهن مع من أرسلن
إلى المدينة . فأمر الخليفة يبيعهن . فأعطاهن إلى دلال ينادى
عليهن في السوق . وكان من عادة النبلات الفارسيات أن
يحجبن وجوههن . فكشف الدلال عن وجه إحداهن فلطمته
لطمة شديدة على وجهه ، فصاح : واعمره ! ورفع أمرها إلى
الخليفة ، فدعاهن إليه ، وأراد أن يضربهن بالدرة . فحال على
دونهن قائلاً : يا أمير المؤمنين إن الرسول قال : أكرموا عزيز

قوم ذل ، وغنى قوم افتقر . إن بنات الملوك لا يبعن ، ولكن قوموهن . فقومهن وأعطاهن أثمانهن ، وقسمهن بين الحسين بن علي ، ومحمد بن أبي بكر ، وعبدالله بن عمر ، فولدن ثلاثة من مشاهير العرب هم علي بن الحسين المعروف بزين العابدين ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبدالله .

منذ ذلك العهد أخذ عدد الجوارى يزداد حتى بلغت مئات الألوف . وكان لدى القواد والأمراء والعمال العشرات منهم ، ولا سيما بعد أن أخذ العرب بالانسياح غرباً نحو شمالي أفريقيا والأندلس . فقد بلغت غنائم موسى بن نصير فاتح المغرب سنة ٩١ هـ ثلاثمائة ألف رأس سبي ، بعث خمسها إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك ، أى ستين ألفاً^(١) وقيل إن موسى هذا عند ما جاء دمشق استقدم معه ثلاثين ألف عذراء من الأسر القوطية النيلية^(٢) .

رحلات النخاسين .

من الأسباب التي كانت تدعو العرب إلى الفتوح والاندفاع وراء حدودهم أخذ السبايا والرجوع بهم إلى مقرهم ، وليس في نيتهم الاستقرار حيث تدافعت جماعاتهم الزاحفة . ولعل دخولهم

(١) نفع الطيب ج ١ ص ١١٣ وابن الأثير ج ٤ ص ٢٥٩ .

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ٢٧٢ .

جنوب فرنسة ، وكثيراً من المعارك التى دارت بين العباسيين والحمدانيين وبين الروم كانت من هذا النوع . يلاقى الفاتحون سبياً عظيماً حتى يضطرب أمرهم ، فلا يجدون لديهم من المئوّن ما يكفى لإطعام السبي ، فينادون عليه ، ويبيعونه جماعات وبأثمان زهيدة ، ويعود الجندى أحياناً وهو يسحب وراءه عشرات الجوارى . ولسنا نغالى إذا قلنا إن هذه المعارك وما شابهها من المواقع التى عنفت فى أروبة بين الأقاليم المختلفة كانت منابع ذهبية للتجار من النحاسين . فيسيرون وراء الجيوش مرافقين لها ، وفى حوزتهم كل ما يحتاجون إليه فى تدبير شؤون السبي ، حتى إذا أسفر القتال عن وجهه ، وتبين الغالب من المغلوب ، أقبلوا على المنتصر ، واشتروا منه الرجال والنساء والأولاد ، فوضعوا القيد فى الأرجل أو الأعناق ، وقادوهم إلى أسواق الرقيق حيث يبيعونهم بأثمان باهظة .

لاقى هؤلاء النحاسون فى العربى فاتحاً سخيّاً ، ولا سيما فى الفتوح الأولى ومواقع الهند والروم . ولكن هذا العربى بعد أن كان مصدراً من مصادر الرقيق أخذ يعتمد على النحاسين الجوايين فى أطراف المعمور لشراء الجوارى ، وبنوع خاص على يهود الأندلس الذين كانوا يتوغلون فى أروبة وينتقلون

إلى روسية أحياناً ، فيحملون من هناك جماعات من الجوارى
 السلافيات والجرمانيات اللاتي عرفن في بلاد العرب باسم
 الصقلييات . وقد صادفن سوقاً رائجة لياض بشراتهن ، وطول
 أجسامهن ، ولما تحلين به من الجمال المانع ، فترفن في
 معيشتهن ، وحفلت حياتهن بالشهى من المطعم ، والشفيف
 من الملبس ، والرفيع من المقام ، والكثير من الإعزاز والإكرام .
 توغل بعض النخاسين في بادية تركستان ، واشتروا هناك
 الفتيات من آبائهن ، ونقلوهن إلى سمرقند حيث غنى بشؤونهن
 إلى أن برزت معالم الجمال فيهن ، وهذبوهن على ما يحب
 أسياد بغداد والبصرة ودمشق والقسطنطينية ، فدفعوا بهن الأثمان
 المرتفعة ، وهذا النوع من أشهر الأنواع وأفضلها . وكان بعض
 العمال يجعلون في خراج الأقطاع الذى يحكمونه جماعات من
 السبايا ، يوجهونهن إلى الخليفة ، منهم ابن طاهر الذى أهدى
 الخليفة المتوكل هدية فيها مائتا وصيفة ووصيف (١)

إلى جانب هذين المصدرين : الأسر والشراء ، مصدر ثالث
 أقل أثراً منهما ، هو الرقيق المسلم الذى كانت تستولى عليه جماعة
 القرامطة . وهى فرقة هدامة فلسفية دينية ظهرت فى أواخر
 القرن الثالث الهجرى ، وعمرت طويلاً فى الطرف الجنوبى من

شبه الجزيرة . كانت تعتقد أنها وحدها الفرقة المؤمنة فتستبيح دماء المسلمين ، وتأخذ من يقع في يدها من النساء والرجال والأولاد أسرى ، وتبيعهم بيع الأرقاء . وقد قطعوا طريق الحاج عام ٣١٢ هـ (٩٢٤ م) فقتلوا كثيراً من الرجال ، وأسروا بعضهم ، وأخذوا خمسمائة امرأة ، وانسحبوا بالجميع إلى مقرهم في هجر . يضاف إلى هذا كله المولدات الشهيرات في مجالس الأدب والغناء اللواتي ولدتهن الجوارى الجليات في بلاد الإسلام . فنشأن نشأة محلية ، وتحلين بالمحبيب من الخصال ، والحميل من الفنون ، وأصبح هن مناعة العرييات من حيث ذوام جمالهن ، ودل الأعجميات من حيث البراعة في أسر قلوب موالين . وبهؤلاء استهينت الأموال ، فهدرت بدون حساب ، ولأجلهن غالى البزازون والعطارون في أسعار سلعهم ، وحيكت المؤامرات ، وبهن تدله العمال والأمراء والقواد والخلفاء . فإذا وقعت إحداهن في يد نخاس تفتن في تزيينها وتعطيها والدعوة لها ، وحافظ عليها محافظته على مقلتيه ، لما يأمل من وراثتها من مال وفير . وربح جزيل ، يغنيه عن عناء السفر البعيد في السعي والتفتيش .



أخاديع النحاسين

كانت النحاسية من التجارات الرائجة . لا تخلو مدينة من المدن الكبيرة من سوق لها ، تبني فيها البيوت ، ويؤتى إليها بأنواع الرقيق المختلف المصادر والألوان والأجناس ، في حين أن عرض الجوارى في الأسواق يحط من قدرهن ، لأن البارعات في الجمال والفنون لا يتزلن هذه المنازل المهيمنة ، وإنما يسعى وراءهن ، وترسل الرسل في التفتيش عنهن . لذلك كانت هذه الأسواق تنحصر بالرقيق المعتدل الجمال ، ويندر أن يكون في النساء حسناوات أو فنانات .

تقع دار الرقيق في بغداد قرب دجلة في الجانب الغربي ، حيث بقيت آثارها بادية إلى القرن الثالث عشر للميلاد^(١). وكان النحاسون يحتالون في إبراز جمال الجوارى المعروضات هناك ، وفي إخفاء عيوبهن . وقد كتب بعض العلماء رسائل في حيلهم وخدعهم ، وفي فن تقليب الجوارى لمعرفة الطبيعي من المصطنع ، بعد أن غالوا في تمويه ما يريدون ستره عن عين المشتري . فكم من سمراء كمدة بيعت بصفراء مذهبة ، وكم من مرة جعلوا العين الزرقاء كحلاء وحمروا الحدود المصفرة ، وسمنوا الوجوه

(١) يوسف غنية - تجارة العراق قديماً وحديثاً ص ٥١ - بغداد .

المقعقة ، وأعدمو الوجوه شعر اللحا ، وأكسبوا الشعور الشقر
 حالك السواد ، وجمدوا الشعور السبطة ، وبيضوا الوجوه المسمرة ،
 ودملجوا السيقان المعزقة ، ورطلوا الشعور الممرطة ، وأذهبوا
 آثار الوشم والحدري والنمش والحكة . يقول بعض النخاسين :
 « ربع درهم حناء يزيد ثمن الجارية مائة درهم فضة » . ومن
 عادتهم تطويل الشعور بأن يصلوا في طرفها من جنسها . وتنصيع
 الأسنان بالسواك وبالأشنان والسكر وتحيق الصبني أو الفحم
 أو الملح المدقوق . ومن وصاياهم للجواري أن يتبرجن للمشتري
 ويختفين منه أخرى ، فإن هذا مالك للقلوب وأن يدارين
 الشيوخ ، والنافري الطباع ، ويستملنهم ويتجنبن الشباب ،
 ويمتنعن عليهم ليتمكن من قلوبهم .

كانت الجواري يخضبن حواجبهن بالدامك ، وأطرافهن —
 إن كانت الجارية بيضاء — بالخصاب الأحمر ، وإن كانت صفراء
 بالأسود ، ويجرون الصناعة مجرى الطبيعة في كشف الضد
 بالضد (١) .

(١) آدم متز — الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص
 ٢٧٠ — ٢٧١ ترجمة أبي ريده .

أنواع الحوارى

وجعل الكتاب الاختصاصيون منهم أنواعاً ، وميزوا كل نوع عن الآخر بذكر فضائله ونقائصه . وفرقوا بين الحوارى كما يفرق علماء النبات والحيوان المعاصرون موضوع دراستهم فى مختبراتهم ومؤلفاتهم ، فلاحظوا أن للهنديات حسن القوام ، وسمرة الألوان ، وحظاً وافراً من الجمال مع صفرة وصفاء بشرة ، وطيب نكهة ، ولين نعمة ، ولكن الشيخوخة تسرع إليهن ، وهن يصلحن للولد . وأن القندهاريات فى معنى الهنديات والسنديات ، ينفردن بدقة الحضور وطول الشعور . . . والبربريات مطبوعات على الطاعة ، نشيطات للخدمة ، ويصلحن للتوليد ، لأنهن أحذب الإناث على ولد . ويقول أحدهم إذا اجتمع للبربرية مع جودة الجنس أن تجلب وهى بنت تسع حجج ، ثم كانت بالمدينة ثلاث حجج ، وبمكة ثلاث حجج ، ثم جاءت إلى العراق ابنة خمس عشرة ، فتأديت به ، جمعت إلى جودة الجنس شكل المدنيات ، وخنث المكيات ، وآداب العراقيات ، واستحقت أن تخبأ فى الحفون . وتوضع على العيون . وأن الزنجيات مساوئهن كثيرة ، وكلما زاد سوادهن قبحت صورهن ، وتحددت أسنانهن ، وقل الانتفاع بهن ، وخيفت

المضرة منهن ، والغالب عليهن سوء الأخلاق ، وكثرة الهرب .
 وليس في خلقهن الغم ، والرقص والإيقاع فطرة لهن ، وطبع
 فيهن أما الحبشيات فالغالب عليهن نعومة الأجسام ولينها
 وضعفها ، لا يصلحن للغناء ولا للرقص ، دقاق لا يوافقهن
 غير البلاد التي نشأن فيها . . . وأن البجاويات مذهبات الألوان ،
 حسناوات الوجوه ، ملمس الأجسام ، ناعمات البشرة ، جوارى
 متعة . . . وأن التركيات قد جمعن الحسن والبياض والنعومة ،
 وعيونهن مع صغرهما ذات حلاوة ، وقدودهن ما بين الربع
 والقصر ، والطول فيهن قليل ، وهن كنوز الأولاد ، ومعادن
 النسل . . . والروميات بيض شقر سباط الشعور ، زرق العيون
 عبيد طاعة وموافقة وخدمة ومناصرة ووفاء وأمانة . . . وأما الأرمنيات
 فإن العرب يلصقن بهن أقبح الأوصاف وأشنع الصفات ،
 ونكتفي بالإشارة إليها دون التفصيل (١) .

أسواق الرومان

عرفت المدنات القديمة والقرون الوسطى في أروبة أمثال
 هذه الأسواق التي تعرض فيها سلع الجمال . وأشهرها تلك
 التي نظمها الجمهورية الرومانية في العاصمة والمدن الكبرى ،

(١) الحضارة الإسلامية عن ابن بطالان .

وجعلت لها شروطاً وقوانين ، وأرغمت القيانين على التقيد بها . ليحولوا دون خداعهم الشارين ، كما أنها حظرت عليهم أن يشتروا الأحرار أو يبيعوهم ، غير أن هذه القوانين كانت تتوارى في الأزمات السياسية والاضطرابات الاجتماعية فيسعى الأحرار إلى هذه الأسواق ويبيعون أنفسهم وأولادهم ونساءهم .

من الشروط التي وضعها المشرع الروماني للأسواق الرسمية أن تدهن أرجل الرقيق بالأبيض ، أي بعلامة الاستعباد ، واما القواد فإنهم يستعملون الطبشور طلباً للإسراع لكثرة عددهم ، ويعرضون جماعات جماعات في مكان مرتفع أمام الجمهور ، أما إذا كانوا من الشخصيات السياسية المعادية فيجعلون في قفص كبير . ويعلق أحياناً في رقبة كل منهم رق كُتبت فيه خصائص حامله المميزة كالأهل والمولد والصفات والكفاءة وأحياناً النقائص . وبعد أن تم عملية العرض يبدأ البيع ، فيكون بالمزاد العلني . وتقسم جماعات الرقيق إلى عبيد عمل ، وجواري منازل ، ويضاف إلى الفريقين بعض العجائز .

أما في الأسواق الخاصة فإن القيان الروماني يعرض بضاعته أمام الشارين ، ويأمر أرقاءه بالركض والقفز والقيام ببعض الحركات الرياضية ، ويذكر صل كل منهم . وكان يغالي في تمويه العيوب وإبراز الحسنات أسوة بجميع القيان العالمين ، فيجعل

البشرة الكامدة مشرقة ، والجسم الضامر ممتلئاً . ويتفنن الشارون في اكتشاف المخبوء فيما يعرض أمامهم ، ويحذرون الأخاديع ، ويرجعون إلى الرسائل المؤلفة في مثل هذا الباب . ولعل بعضها يشبه رسالة ابن بطلان في قلب الرقيق التي استقينا منها بعض الإشارات في مكان آخر . وكان القانون صريحاً في مثل هذه الحالة ، فيرى أن الخرس والصمم وقصر النظر والبرداء والنقطة والبحر الدال على مرض متأصل في الرئتين والعقم والإجهاض أو أى نقص في الأعضاء ، لا يعلن قبل الشراء ، هو سبب من الأسباب التي تقضى برد الجارية إلى القيان واسترجاع ثمنها منه .

أثمانهن

تختلف أثمانهن باختلاف أجناسهن ، والفنون التي يحسنها والعصر الذي يعشن فيه . ففي زمن الفتوح وتدفق السبايا على المدن تنخفض الأسعار لكثرة العرض وقلة الطلب . فتحذر أثمانهن انحداراً عمودياً حتى تباع الجارية المليحة الفتية المثقفة بأقل من مائة دينار . أما إذا حل الخفاف ، ونضب معين الغزو والفتوح ، واعتمد النحاسون على المولدات والمحليات من البلدان القصية في تموين أسواق الرقيق فإن أثمانهن تعود إلى الارتفاع بحيث يصبح معدل ثمن الجارية التي سبق وصفها ألف دينار .

أما إذا شئنا أن نتتبع الأثمان المرتفعة التي كان ينقدها الخلفاء ،
والأمراء والعمال والقواد وأصحاب الثراء في الجوارى اللواتي يرقن
لهم فإننا نقفز إلى عشرات الألوف . فسعيد أخوسليمان بن عبد
الملك ابتاع مغنية مشهورة بحسن غنائها ، وروعة جمالها ، بمليون
درهم ، أو ما يعادل سبعين ألف درهم^(١) ، واشترى يزيد
ابن عبد الملك الأموي سلامة المغنية بعشرين ألف دينار ،
وابتاع الرشيد إحدى جواريه بمائة ألف دينار . ورغب محمد
الأمين يوماً إلى جعفر بن الهادي أن يبيعه جارية له اسمها بذل
فأبى ، فملاً له قارباً ذهباً ، وأرسله إليه . وفي الربع الأول من
القرن الرابع الهجري اشترى ابن رائق أمير العراق جارية مولدة
سمراء حلوة الغناء بثلاثة عشر ألف دينار ، وأعطى من دله
عليها ألف دينار . وأشار الجاحظ في رسالة القيان إلى جارية
تعرف باسم حبشية بيعت بمائة ألف دينار^(٢) وعشرين ألف دينار .
ولا يغرننا اسم حبشية ، فإن كثيرين من الأسياد كانوا يطلقون
على المفضلات من جواريههم أقبح الأسماء لحفظهن من العين
الشريرة .

(١) العقد ج ٣ ص ٢٠٣ .

(٢) رسالة القيان ص ٣٠ .

تكاثرهن

نخطئ في التقدير إذا قلنا إن عدد الجوارى كان قليلا في المنازل العربية آنذاك . فإنهن يغلبن كثرة على الحرائر ، ويحصين بالملكات في منازل العظماء والأثرياء وأحيانا بالآلوف . وفي زمن الحصب يزيد عددهن على عشر في منازل العامة . وكن من نفيس المتاع الذي يتهداه الناس ، أو كما يقول الجاحظ بمتزلة المشام والتفاح الذي يتناقله القوم بينهم^(١) ، وقد أحصى عدد الرقيق الذي كان بحوزة الخليفة الراشدي الثالث فإذا به يزيد على ألف ، وكان معاوية يؤتي بالجوارى ، فيوزعهن على المقرين إليه ، ويعهد لبعضهن بالوقوف وراءه ليدفعن عنه الذباب ، وليروحنه بالمراوح ، أو ليأتينه بما يحتاج إليه من شراب . وعند ما زفت بوران إلى المأمون جعل والدها ، احتفاء بهذا الزفاف ، رقاعا كتب فيها أسماء ضياع وجوار ، فمن وقعت واحدة منها في يده كان له ما فيها . فالجوارى من الهدايا المألوفة التي يهديها الخلفاء إلى الشعراء والمقرين إليهم . من ذلك أن ابن الأنباري كان يتردد على أولاد الراضي ، فريوماً بسوق النخاسين ، فأبصر بجارية تامة الأوصاف ، فحلت في قلبه محلا وسيعاً . وتابع طريقه متحسراً عليها إلى دار أمير المؤمنين .

(١) رسالة القيان ص ٥٦ .

فسأله عما به ، فروي له الأمر ، فبعث من اشتراها له ، وحملها إلى منزله ، فلما دخله وحدها هناك^(١). وأنفق بعض الخلفاء في إطعام جواريه كل يوم مائة دينار . وكان للمتوكل اثنا عشر ألف سرية ، ويختصر بعضهم هذا العدد فيجعله أربعة آلاف^(٢) ويختزله ثالث فيحوله إلى أربعمائة ، وهو عدد فيه كثير من الاقتصاد والقناعة . ويزول عجبنا بعد هذا عند ما نقرأ ، في صفحات التاريخ ، أن بعض القواد كانوا يرثسون كتيبة من الجند مؤلفة بآجمعها من أبنائهم وذراريهم . وعند ما تغلب صلاح الدين الأيوبي على الفاطميين عثر في قصورهم على اثني عشر ألف نسمة كلهم من النساء ، ليس فيهم من الذكور إلا الخليفة وأبنائه . وقال ابن حزم في نقط العروس : « لم يل الخلافة في الصدر الأول من أمه أمة حاشا يزيد وإبراهيم ابني الوليد ، ولا وليها من بني العباس من أمه نجرة حاشا السفاح والمهدي والأمين . ولم يلها من بني أمية بالأندلس من أمه حرة أصلا » . وليس هذا يعني أن جميع هؤلاء الجواري كن للتسرى ، فإن بعضهن كن يصرفن إلى أعمال المنزل ، وبعضهن يتفقدن أيامهن وجهدهن في وجوه متعددة تشير إليها في مكان آخر .

(١) الحضارة الإسلامية ج ١ ص ١٩ .

(٢) المسعودي ج ٢ ص ٢٧٩ .

من أغرب ما يمكن أن نسمعه في عصرنا الحاضر أن من
 مميزات الحرائر الكاملات الصفات إهداءهن أزواجهن الجوارى
 المملكات من مالهن الخاص . فإن هارون الرشيد عند ما تدله
 بحب دنانير جارية جعفر البرمكى ، وألف التردد عليها اشترت
 زبيدة امرأته عشر جوار مملكات ، وأهدتهن إليه لتحوله عنها ،
 وبينهن مارية أم المعتصم ، ومراجل أم المأمون ، وفاردة أم
 صالح^(١) ، وكذلك روى الجبرتي المؤرخ المصرى المشهور
 عن إحدى زوجات أبيه أنها كانت ، لصلاحها وبرها بزوجه ،
 تشتري له الجوارى من مالها وتحلين بالذهب والثياب وتقدمهن
 لزوجهن طلباً للأجر والثواب^(٢).

(١) الأغاني ج ١٦ ص ١٣٧ .

(٢) الجبرتي ج ٢ ص ١٨٢ ، زبدان — تاريخ التمدن الإسلامى

ج ٥ ص ٧٩ .

جوارى الخمارات

الخمارات

تنصرف الجوارى إلى العمل فى نواح عديدة من مرافق الحياة تكاد لا تحصى ، كما أن أحداً من المؤرخين لم يفتن فى عصر من عصور الحضارة العربية إلى إحصاء تقريبي لهن ، رغم غلبتهن على الحرائر ، وتصدرهن فى المجالس .

هن فى كل مكان : فى المنازل يقمن بدور الزوجة أو الخادم أو الماشطة أو الموضع أو المريية ، أو فى القصور يقمن بما أسلفنا من فنون النشاط ، وبعث المرح فى قلوب أسيادهن بما يتقنه من الرقص والغناء وقرض الشعر أحياناً ، أو فى معارض القيانين والخمارين فيكسبن لأصحابهن المال والهدايا ، مما يعوض عنهم بعض ما أنفقوه لشرائهن والعناية بلباسهن وجمالهن .

وجوارى الخمارات حريات بالعناية لكثرتهم وتعدد أجناسهن . بل الأحرى بنا التوقف قليلاً أمام هذه الخمارات التى كثرت الإشارات إليها فى دواوين الشعراء المتغنين بالخمرة ، ولكنها ظلت تبدو لنا نحن المعاصرين شاحبة الوجه ، مبهمة الخطوط ،

فيتخيلها كل منا كما يشاء هواه ، أو كما يتصور الحماريات المعاصرة ،
 فى حين أن تبيان هذه الناحية من الحياة قد يؤدى إلى تعديل
 بعض الآراء ، ويجلو أمامنا صورة جديدة طريقة عن الحياة
 آنذاك . فمن الخطأ تخيلها مشابهة لما نشاهده فى المدن العامة
 من حيث التنسيق والتنظيم والإعلان عن نفسها ، وتصورها
 فى الشوارع وتوثيها أمام الناس ، ومن حيث تعبثها بأنواع
 المشروبات ، وحديد الفرش وشهى المقبلات ، وطرف الزينة .
 الواقع يسىء إلى خيالنا ، ويخالف ما يمكن أن يستقر فى ذهننا
 بعد مطالعة الشعر الحمري ، لأن هذه الحماريات كانت جد
 متواضعة . فلا تحوى إلا ما يحتاج إليه الحمار فى صنعته والشارب
 فى تعاطيه . وأما الكماليات فنادرة الوجود فى حانات ذلك العهد .
 وإذا شئنا رسم جدول بما يوجد عادة فيها نراه لا يتعدى البسط
 والتمارق التى يتمدد عليها الشاربون والدنان التى تحبس فيها
 الحمرة ، والأباريق التى تفرغ فيها بعد أن توزن لهم ،
 والقناني والطاسات والدوارق والكؤوس والبزل والأعواد والطنابير .
 كانت هذه الأواني متنوعة ، مختلفة الأشكال والألوان
 باختلاف الحانات . فبعضهم يؤثر وضع الحمرة المعتقة فى
 خاية ، يغم فوها بالطين ، وآخرون يعمدون إلى الزقاق المصنوعة
 من الجلد كقول الشاعر :

تضمنها زق أزب كأنه صريع من السودان ذو شعر جعد
يربط رأسه بحبل أو خيط ، ويحل عندما تسكب منه الحمرة :
ولا حللتا رأسه من رباطه وقاض دماً كالمسك أو غير الهند
وجدناه في بعض الزوايا كأنه أخو قرة يهتر من شدة البرد (١)
وكذلك كانت الأباريق والكؤوس مختلفة الأصناف والأنواع ،
تصنع حيناً من الفخار أو الحديد ، وأحياناً من الفضة والذهب ،
وتوشى بالرسوم والتصاوير ، فتبدو فتنة للناظرين . ولعل الحمارات
التي تردد عليها الاستقرائية كانت زاخرة بأمثال هذه كقول الشاعر :
قد عا بالبرال ثم وجاها فجرت كالعقيق والجلنار
في أباريق من بلخين حسان كظباء سكن عرض قفار
أو كراك ذعرن من صوت صقر مسرعات شواخص الأبصار (٢)
تمثل نقوش الكؤوس مشاهد عديدة من معارك حربية
ترمز إلى العهدين الفارسي والبيزنطي ، دقيقة الصنع ، تنقيد
بجزئيات المرسوم من حيث تفاصيل الثياب والأزياء :
فحل بزالتها في قعر كأس محفرة الجوانب والقرار
مصورة بصورة جند كسرى وكسرى في قرار الطهرجار

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٩٦ .

(٢) ديوان أبي نواس ص ٢٢٣ .

وحل الجند تحت ركاب كسرى بأعمدة واقية قصار (١)
أما القناني الزجاجية فتملاً للزينة الذين يتناولون الحمرة
خارج الحانة .

استخفاء الخمارين

كانت الخمارات متوارية ، لا تعلن عن نفسها في كثير
أو قليل ، ولا تجرؤ على الظهور أمام الناس خوفاً من أصحاب
السلطان ورجال الشرطة الذين يتعقبون أصحاب الحانات
ويتبعونهم ، ويكشفون ما استتر من أمرهم ، لينالوا جزاء مخالفتهم
الشرع . لذلك كانت الدعارة تنحصر في الزين الذين يترددون
على الحانة من عشاق الحمرة والمجان ، بعد أن يتعارفوا أحياناً
على رموز خاصة يميز بها الخمار الزين المسالم من الطارق الغريب
أو الشرطي المداهم . وكثيراً ما تكون الحانة منزلاً لصاحبها ،
يستر فيه أمره إذا عنفت المطاردة . فعند ما يطرق الرواد بابه
ليلاً يتناوم ، وقد دب الرعب في قلبه خوفاً من وشاية ، كما
قال الشاعر :

تناوم خوفاً أن تكون سعاية وعاوده بعد الرقاد وجيب

ولما دعونا باسمه طار ذعره وأيقن أن الرجل منه خصيب (١)
وكما قال في مقطع آخر :
لما قرعت عليه الباب أوجله وقال بين مسر الخوف والراجي
من ذا... فقلت فتي نادته لذته
.....

افتح ، ففهمه من قولي وقال لقد

هيجت خوفى لأمر فيه إيهاجي (٢)
وللخمارين بعض العذر في هذا الخوف ، لأن وقوعهم في
قبضة الشرطي يؤدي إلى إقفال الحمار ، أي باب رزقهم .
وإلى إهراق الخمور المعتقة بالطرقات ، وإلى جلد صاحبها ،
وسجنه أحياناً ، وأخذ ماله من مال أو متاع . هذا إذا كان ذمياً ،
أما إذا كان حنيفاً فإن مصيره يكون أسوأ . لذلك تفنن أصحاب
الخمارات أو الصاحبات في التستر والتخفي . وكانت النساء
أغلب من الرجال في اصطناع هذه المهنة . فأجهدن أذهانهن
في ابتكار الأساليب التي ترد عنهن كيد الشرطة ، وتحجبهن عن
عيونهن . من أساليبن أنهن جعلن لأبواب منازلهن الوسيلة
طلاقات صغيرة في مستوى الوجه ، يفتحنها ويوصون منها
لمراقبة الزقاق والتعرف إلى الطارق قبل ولوجه العتبة ، حتى

(١) ديوان أبي نواس ص ١٠٥ .

(٢) ديوان أبي نواس ص ١٤٥ .

إذا اطمأنن إليه فتحن الباب على مصراعيه . ورحبن به كما يليق بالضيف . وإذا خشين سعاية أو أنكرن الزى أوصدن الباب جيداً بالمزلاج . وتحصن وراءه وأنكرن أن لديهن خمراً ومتعة . إلى أن يخفين كل ما يدل على أن المنزل خمارة ممهمة ، أو يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

رجال الشرطة

ولعل بعض رجال الشرط عهد ذاك كانوا كبعضهم اليوم . يتشددون في المطاردة والمراقبة إلى أن تقع الفريسة في أيديهم فينصبون أنفسهم حكماً للحصول على أتاوة ينعمون بها ، دون أن يرفعوا الأمر إلى رؤسائهم . ويستعينون بوظيفتهم لبلوغ مآربهم في الشراب ومن الطريف أن نشير إلى حانة شهلاء اليهودية المشهورة بأناقة ملبسها ونظافة كؤوسها ، ورقة حديثها . كان أحد الشعراء متيماً بها ، ألف التردد عليها والتودد إليها . يشرب هناك ويقول في كل ذلك شعراً ، فيسعده التوفيق حيناً ، ويخطئه أحياناً . وقد نزل بشهلاء في أحد الأمسية ، وأقفل الباب وراءه ، فإذا بدق عليه ، فدنا مع صاحبه من الكوة الصغيرة وفتحها . ونظرا إلى الخارج فأبصرا شرطياً . في وسعنا أن نتمثل ما أصابهما من الجزع ، فالحد أقل ما ينتظر الشاعر المسلم ، والحراب

أيسر ما يصيب شهلاء النمية . ولكن الشرطى كان مسالماً . فهو لا يود إزعاجهما ، بل يريد أن يستق خمرأ ليأمنأ شره . ويلج فى ذلك ، والشاعر وصاحبه يترددان متخوفين من غدره إذا استقر داخل الحمامة ، حتى يفطنا إلى الثقب الذى فى الباب ، فيضعان له فيه أنبوبة قصب ويصبان فيه النبيذ من داخل ، والشرطى يشرب من خارج . فأفرخ روع الصديقين وروى الشرطى ظمأه ، وكفى الله المؤمنين شر القتال . وقد قال الشاعر فى ذلك شعراً ، فكان مما قاله :

سأل الشرطى أن نسقيه فسقيناه بأنبوب القصب
إنما نشرب من أموالنا فاسألوا الشرطى ما هذا الغضب (١)
فالحمامة هى إذن فى أغلب الأحيان غرفة أو بعض غرفة ،
مجهزة بالأنماط ، وقد طرحت الزقاق فى زاوية منها ، أو تخبأ
فى مكان لا تقع عليه العيون . يقعد الشرب على البسط ،
ويأخذون بأيديهم الكؤوس ، وهكذا لا ترى أثراً للموائد
والكراسى ، ولا يقدم لهم شىء من المشهيات إلا نادراً .
وأشهر النقول التى يتناولونها بعد ارتشاف الكؤوس ما عرف
بنقل أبى نواس . فقد سأل أحد الخلفاء بعضهم : ما أخف

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٩١ .

النقل على النيد ؟ فقال له : نقل ابى نواس . فقال : ما هو ؟ فأنشده :

ما لى فى الناس كلهم مثل مائى خمر ونقلى القبل (١)
 يمر الساقى ، وهو غالباً جارية بارعة الجمال بالشرب ، يحمل
 بيده إبريقاً معدنياً له عتق دقيقة ، فيملأ الكؤوس الفارغة
 حيناً بعد آخر . ولم يكن أصحاب الحمارات يتناولون من الزين
 ثمن كل قدح على حدة ، وإنما يبيعونهم إبريقاً مملوءاً يتسلمه
 النديم ، حتى إذا فرغ الأول قبضوا ثمن الثانى وترعوه خمرأ ،
 وعهدوا به إلى النديم ليتابع مهمته فى سقيهم .

الحمارات الريفية

تقع بعض الحمارات المشهورة خارج المدن ، فى المواضع
 التزهة المحفوفة بالكروم والأشجار والمعاصر ، فيقصدنها عشاق
 الحمرة واللهو ويقيمون فيها أياماً . ولعل هذه كانت واسعة ،
 تتألف أحياناً من غرف عديدة . يعتمد فيها الشرب إلى الراحة ،
 وإلى النوم غراراً ، ليعودوا وقد جددوا نشاطهم إلى احتساء
 الحمرة . ومن هذه الحمارات الطلقة التزهة تلك التى نزها أبو نواس
 عند ما أزمع على الحج ، وهى ما بين الكوفة والقادسية . فلما

ذاق خمرها تشهى متعتها ، ونازعته نفسه إلى الإقامة فيها والتسويق
في أمر دينه في سبيل دنياه ، فتحول عن عزمه واستقر فيها
يشرب ، وقد اطمأن إلى ملاعب شبابه . وما زال هناك يحتسى
الكؤوس حتى وفد أوائل الحاج عائداً من المناسك ، فكر معهم
راجعاً إلى بغداد وكأنه كان منهم .

أكثر القرى شهرة بمثل هذه الحانات عانة وقطربل ، وفيها
يقول أبو نواس :

قطربل مربعي ولي بقرب الكوخ

مصيف وأمي العنب (١)

وكذلك قنة fark ، وكلواذ والصالحية وطيرناباذا والكرخ
التي ورد ذكرها في البيت السابق . ولعل الشاعر أشار إلى واحدة
من هذه الحمارات الريفية في قوله :

ومل إلى مجلس على شرف بالكرخ بين الحديق معتمد

ممهد صففت نمارقه في ظل كرم معرش بخضد

قد لحقتك الغصون أردية فيومك الغض بالنعيم ندى (٢)

كانت هذه الحانات على اختلاف أنواعها ومواقعها تدر

على أصحابها المال الوفير ، مما يساعدهم على البذل في رشوة أصحاب

(١) ديوان أبي نواس ص ١٠١ .

(٢) ديوان أبي نواس ص ١٦٤ .

النفوذ المسؤولين وكف الأذى عنهم ، فيظهر بعضهم أمره عياناً دون وجل ، ويجود بناء حانته ويسيجها أو يؤزرها — كما يقال — ويسقفها بالساج ، ويقيمها بجانب بستان نزه يملأ الأنظار بهجة ومتعة ، حتى رأينا خادماً المتوكل ينصرف إلى مثل هذه التجارة الراجحة ، بعد أن تبين فيها الوسيلة الفضلى لاستدراار الأموال ، فاتخذ مثل هذه الحانة الأنيفة الظاهرة مقراً للاستقراطين من الشاريين والمجان وأصحاب الكيف من الأثرياء والقواد وأبناء الأسر المشهورة ، فلا يسمح لأحد من العامة الوضعاء بالدخول إليها . وحسن فيها أدوات الشراب ، واتخذ لها خماراً يهودياً لبقاً حاذقاً ، وحال بنفوذه وماله دون عيون الشرطة (١)

خمارتا اللواتق

مما لا شك فيه أن كثيرين من كبار القوم قد أغرموا بمثل هذه الخمارات ، فكانوا يتوافدون عليها ، وينعمون بما فيها ، حتى تعداهم هذا الغرام إلى بعض الخلفاء العباسيين الذين حال مقامهم دون تردددهم على الحانات ، فأنشأوا مشيلات لها في حدائقهم ، وخلقوا الجو المرح الذى يطيف بها . كما حدث للواتق الذى كان يجب الحانات ، وما قيل فيها ، وما غنى به فى

ذكرها فعقد حانتين : إحداهما في دار الحرم ، والأخرى على الشط ببغداد . وأمر أن يختار له خمار نظيف من أهل قطربل . فأتى بنصراني له ابنان نظيفان مليحان ، وابنتان على شيء كثير من الجمال . فجعلهم الواصل في الحانتين ، وضم إليهم خدماً وغلماناً وحواري روميات ، وأخدم النساء حانة الحرم ، والرجال حانة الشط ، ونقل إليهما طرائف الشرب ، وفرشهما فرش الخلقة ، وعلق عليهما الستور ، وجعل فيهما الأواني المذهبة والدنان المدهونة فكانتا أحسن منظر وأبهاء . فلما فرغ منهما أمر بإحضار المغنين ، ولم يدع أحداً يصلح من ضراب الطناير إلا أحضره . وتوافد الشرب ، وبرز الخمار مع أولاده وعليهم الأقيية المسهمة ، وفي أوساطهم الزناير المحلاة ، ومعهم غلمان يحملون المكاييل والكيزان والمبازل في الأطباق . وأخرجت تلك الدنان المذهبة ، وقد طينت رؤوسها تطييناً نظيفاً يعبق منه الطيب . فأقيمت بإزاء المجلس الذي كان فيه جالساً ، وبزلت كما يفعل في الحانات ، وجعل يؤتى بالنماذج فيذوقها ، ويعرض ذلك على الجلساء ، فيختار كل منهم ما يشتهي ، ويحىء إلى الخمار ويكتال منه بمكيال في إنائه ، كما يفعل في الحانات ، ويعود إلى موضعه فيجلس فيه . وأمر

الخليفة أن يجعل على رؤوس الحضور أكاليل الآس ، وما أشبهه من الرياحين ، وشرب شرباً كثيراً ، وأمر للخمار بألف دينار ، ولزوجه بألف أخرى ، ولكل واحد من أولاده بخمسة دینار . ولم يبرح المجلس أحد من الشرب إلا بجائزة سنينة . (١)

شروط الكمال

لعلنا فطنا إلى أن هذه الأكاليل من الآس والياسمين والغار ، وما أشبهها من أنواع الرياحين ما هي إلا بقية من وثنية قديمة العهد ، يعتقد أنها تذهب بالخمار ، وتساعد حاملها على استساغة الشراب . وقد بدا لنا من المثال الذي عرضناه باقتضاب أن الحمرة لا تكتمل شروطها إلا إذا كانت بإشراف ذى نصرانى أو يهودى بنوع خاص ، وأن تدور بها القيان على الشاريين . ولعلنا فطنا أيضاً إلى ما يرمز إليه الزنار الذى تمنطق به الرجل وزوجه من أنهما حاذقان ماهران بفنون الشراب لأنهما ذميان . فالشاربون لا يستطيعون القهوة التى تسكبها يد مسلمة ، وإنما لها كاهنات خيرات يحدقن الطقوس الحمرية ويتوارثنها . أما عن جدة . فالخمار اليهودى أو النصرانى من شروط الكمال فى الحانات ، لأن كلا منهما قد ألف مهنته وأجادها ، وعرف

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٩٣ - ٣٩٤ .

أسرار الحمرة وأنواعها وطعومها وشمومها ، وأدرك أذواق الشاربين ،
فتفنن في إرضائهم وتأمين سبل الراحة لهم . وليس يعنى قولنا
أن المسلمين لم يحترفوا هذه المهنة بل يعنى أن الذميين من يهود
ونصارى كانوا أغلب من انصرف إلى هذه التجارة ، فأبدعوا
فيها ، واطمأنت إليهم الزبن . ولم تخل حياة الحمارين من
تحاسد طبيعي بين يهود ونصارى ، بل لعلمهم أعلنوا الخصومة ،
وغالوا في التذام والتراشق بالفريات والتهم ، وكل منهم ينتقص
من فضل عدوه ، ويغالى في تقريظ نفسه .

كان هؤلاء الحمارون يتناسون أسماءهم المركبة أحيانا من أعلام
السنة المخارج ، ويطلقون على أنفسهم ألقاباً خفيفة رشيقة على
ثقبلة الشرب دون عناء . ونحن واجدون عند الشعراء الحمريين
تجارة من الإشارات إلى هؤلاء الرجال والنسوة المنصرفين إلى
كثيراً الحمرة ، فيقول أحدهم :

وفتيان صدق قد صرفت مطيهم

إلى بيت خمار نزلنا به ظهرا

فلما حكى الزنار أن ليس مسلما

ظننا به خيراً فظن بنا شرا

فقلنا : على دين المسيح ابن مريم ؟

فأعرض مزوراً وقال لنا هجرا

ولكن يهودى يحبك ظاهراً
ويضمرك فى المكنون منه لك الغدرا
فقلت له : ما الاسم ؟ قال سمؤال
ولكنى أكنى بعمرى ولا عمرا
وما شرفتنى كنية عريية
ولا أكسبتنى لا ثناء ولا فخراً
ولكنها خفت وقلت حروفها
وليست كأخرى إنما جعلت وقرا (١)
ولعل خمارنا هذا يعرض بالألقاب التى كانت تطلق على
الحمارين النصارى، كذلك الذى جاء عنه :
فقلت له : ما الاسم حيث ؟ قال لى
دعانى أبى سابا ولقبى شمرا (٢)

زينة الحانات

يختار أصحاب الحانات غالباً قياناً مكتملات الجمال والأدب
والذوق ، ناعمات بكثير من الميزات التى تجعلهن مقربات

(١) ديوان أبى نواس ص ٢١٣ .

(٢) ديوان أبى نواس ص ٢١٧ .

إلى أذواق الأدباء وغير الأدباء من الشاربين ، كتلك الساقية
التي يقول فيها الشاعر :

في كف ساقية ناهيك ساقية

في حسن قد وفي ظرف وفي أدب

كانت لرب قيان ذي معاينة

بالكشع محترف بالكشع مكتسب

حتى إذا ما غلى ماء الشباب بها

وأفعمت في تمام الجسم والعصب

تمت فلم ير إنسان لها شيئاً

فيمن برا الله من عجم ومن عرب (١)

كانت جوارى الحانات متفتنات في إظهار ملاحظتهن ،

يتخذن أحياناً أزياء الغلمان من حيث اللباس وتصفيف الشعر ،

ويعقربن سوافهن على مستدار الأذن ، ويجعلن في أيديهن

الدمالج ، وفي أرجلهن الخلاخيل (٢) ويحجين أجسامهن بالشفيف

من النسيج ، وينصرفن إلى سكب الحمرة في الأقداح ، أو

مزجها بالماء ، وبالغناء والرقص ، ويتقيدن برغبات الشاربين

فينشدن ما يخطر لهم من الأبيات على ألحان معدة شائعة .

(١) ديوان أبي نواس ص ١٠٢

(٢) ديوان أبي نواس ص ١٣٢



C

وكثيراً ما كان الشرب يتقارضون الشعر مديحاً وغزلاً ووصفاً ،
ثم يطرحون على القيان ما انتهوا إليه ، فيتغنين به . وهكذا تتعاون
قريحة الشعراء ، وحناجر القيان ، ودييب الحمرة في خلق جو
زاخر بالطرب والأدب . وتتحول تلك المجالس إلى حلقات تختلط
فيها ألحان المغنيات المترافقات بدق الطناير ، وعزف المزامير ،
وصخب السكارى ، وكل منهم يلح في طلب صوت معين ،
والجوارى متأنيات حريصات على إرضاء الجميع :

وصهباء من حانوت ريمان قد غدا

على ولم ينظر بها الشرق صابح
تبصر عنها اليوم كأس روية

وبرد العشايا والقيان الصوادح
وبتنا على الأنماط والبيض كالدمى

تضئ لنا لباتهن المصابيح^(١)

خداع الجوارى

القيان اللواتي عرفهن العرب لا يختلفن عن شبيهاتهن في
جميع أصقاع العالم قديمه وحديثه . يتوددن إلى صاحب المال
الوفير ، ويبدن غوايتهن ، ويعمدن إلى جميع الأساليب

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٨٨ .

المغرية لإيقاع من يردنه في حبالهن . وقد تيين للجاحظ . وهو
المحلل المبدع . أن القينة تكاد لا تخلص في عشقها . لأنها
مجبولة على نصب الأشرار للمرابطين عندها . ليقعوا في
أنشوطتها . فإذا شاهدها المشاهد رامت باللحظ وداعبته بالتبسم .
وغازلته في أشعار الغناء . ونشطت للشرب . وأظهرت الشوق
إلى طول مكثه . والصباية لسرعة عودته . والحزن لفراقه .
فإذا أحست أن سحرها بدأ أثره في نفسه تزايدت فيما كانت
قد شرعت فيه . وأوهمته أن الذي بها أكثر مما به منها .
ثم يبدأ عهد ثان بينهما . فتكاتبه وتشكو إليه هواها . وتقسم
له أنها مدت الدواة بدمعها . وأنه لا يفارق ضميرها في ليلاها
ونهارها . وأنها لا تريد سواه . ولا تؤثر أحدا على هواه . ولا
تريده لماله . بل لنفسه . فإذا تلطف فأجابها أدعت أنها قد صيرت
الجواب سلوتها . وأقامت الكتاب مقام رؤيته . وعندئذ يبدأ
عهد ثالث بينهما . تظهر فيه الغيرة عليه . وتنسب إليه النظر
إلى صواحبه . وتسقيه أنصاف أقداحها . وتزوده عند انصرافه
خصلة من شعرها . وتهدي إليه في الأعياد الهدايا المناسبة .
وتنقش على خاتمها اسمه . وتزعم أنها لا تنام شوقاً إليه . ولا
تهنأ بالطعام وحداً به . وأنها جمعت قينة من دموعها من البكاء
عليه :

وربما عمدت إلى مثل هذه الحيل ، وتلبست مثل هذه العواطف ، ورددت مثل هذه الأقوال والأعمال ، وهي تزعم كل ذلك لثلاثة أو أربعة من المترددين عليها ، فتبكي لواحد بعين ، وتضحك لرفيقه بالآخرى ، وتوهم كلا منهم أنها له دون الآخر ، وأن الذى يظهر خلاف ضميرها . وتكتب لهم عند الانصراف كتباً على نسخة واحدة ، تذكر لكل واحد منهم تبرمها بالباقيين وحرصها على الحلوة به دونهم (١) .

تثابر على هذا النهج من الخداع إلى أن تنتزع منه ما معه من المال ، فتطرحه خارجاً . وقد فازت منه بما أرادت ، وفاز منها بالهم والنصب . وقد أوجز أحد الشعراء هذه الحالة بأبيات قال فيها :

إذا رأين القيان أحق ذا مال يقلبن نحوه الحدقا
وبالتغنى وبالتدل يسيلن فؤاداً بحبه علقا
حتى إذا ما سلخن جلده سلخاً رفيقاً وبدد الورقا
قلن ادخلوا ، ذا الطوير قد طرح الشريش ، وشدوا من دونه الغلقا

(١) رسالة القيان ص ٦٩ - ٧٢ .

فبتن يرعين في دراهمه

وبات يرعى الهموم والأرقا(١)

لعلنا واجدون لهؤلاء القيان بعض العذر فيما يفعلنه ، وما يقلنه ، فسادتهن يربونهن على هذه الأخلاق اكتساباً للمال والهدايا ، وينشأن في بيئة فاسدة الخلق والعادات ، يتدارسن الغواية والخداع وأساليب الدهاء للاستيلاء على القلوب ، ويتعلمن الفنون التي تنفعهن في حياتهن المقبلة في بيوت القيان والحانات ومنازل موالين . فمن الصعوبة بمكان أن تسلم القينة من الفتنة ، وأن تتخلق بالجميل من الخصال والصدق والصراحة . فهي تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها على هوا الحديث بين الخلعاء والمجان ، ومن لا يسمع منه كلمة جد ، ولا يرجع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة . وتروى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت فصاعداً ، ويكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة ، إذا ضرب بعضه ببعض بلغ عشرة آلاف بيت ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ، ولا ترهيب عن عقاب ، ولا ترغيب في ثواب ، وإنما بنيت كلها على ذكر العشق والصبوة والشوق والمجون . وهي لا تنفك دراسة

(١) عيون الأخبار ج ٤ ص ٩٠ .

لصناعتها ، مكبة عليها ، تأخذ من المطارحين الذين يغالون في
 إفسادها ، وهي مضطرة إلى ذلك في صناعتها لأنها إن جفتها
 تفلتت ، وإن أهملتها نقصت ، وإن لم تستفد منها وقفت .

الجواري المثقفات

تعليمهن

الجواري اللواتي اضطرب بهن المجتمع الإسلامي على أنواع :
 منهن التي سبيت من بلاد الأعداء ، ونقلت إلى ديار الإسلام
 وهي على شيء من العمر . فلا سبيل إلى تعليمها العربية ،
 أو تخريجها في الفنون والآداب ، أو تهذيبها بأخلاق البلاط
 والأسر النبيلة فهذه حظها من الرعاية قليل ، وشأنها في المنزل
 الذي تحل فيه هين . ينظر إلى ما في قسبات وجهها من جمال ،
 ويختلف ثمنها باختلاف ما تبقى في مفاصلها من فتوة ، وفي وجهها
 من حسن . فتحول إلى أعمال المنزل أو تحظى برضا مولاهما . وقد
 كثر عدد السنديات والهنديات والروميات والأرمنيات والحباشيات
 اللواتي لا يبن بالعربية ، وإذا ابن بما علق بأذهانهن من مفردات
 وتعاير اعتاصت المخارج عليهن ، فأسان التعبير ، كما أسان
 اللفظ . وكثيراً ما كانت أصداء اللغات الغربية تتجاوب في
 قصور بغداد وقرطبة وأشبيلية ، وتقوم الجواري العالمات بدور
 الترجمة .

ومنهن اللواتي نقلن إلى ديار الإسلام وهن صغيرات السن قابلات للتعليم والحفظ . فهؤلاء شأنهن شأن المولدات اللواتي ينحدرن من الرقيق . ينشأن نشأة عربية خالصة ، ويحذقن أساليب التعبير ، ويتخلقن بعادات المكيات والبصريات والمدنيات والكوفيات والقرطبيات والدمشقيات ، وتلين ألسنتهن في تأدية ما يردنه من المعاني والأغراض ، وهذان النوعان هما أخرى الأنواع بالدراسة لعظم الشأن الذي انتهين إليه ، وللمهمة العظيمة التي اضطلعن بها ، وللأدب الرفيع الذي أنتجته ، وللغناء البديع الذي برعن فيه .

حرص العرب على هؤلاء حرصاً شديداً ، وفطن أصحابهن من قبانين ورجال سيف وأدب وعمل إلى الكنوز التي في حوزتهم ، وإلى أنهم بشيء من العناية يحولونهن إلى ما يشاؤون من فنانات بارعات ، وشواعر موفقات . وكثيراً ما كان الراغب في مثلهن يعهد إلى القبانين البارعين في التفتيش في المدن الإسلامية أو سواها على فتيات تتوافر فيهن الحداثة والاستعداد لوعى العلم والجمال الرائع . ومما لا شك فيه أن الملاحظة كانت شرطاً أول وميزة فضلى . يحدد الطالب للقيان الميزات التي يريدتها ، فينصرف هذا إلى مهمته محاولاً جهده إرضاء ذوق الزبون . وكثيراً ما يغالى المشتري في شروطه ، ويسرف في المغالاة

بحيث يستدعى الجزء من صاحبه أو سامعه . من ذلك أن أحدهم قال للدلال : اطلب لى جارية حصاناً عند جارها ، ماجة عند زوجها ، أدبها الغنى ، وذللها الفقر ، لا ضرة صغيرة ولا عجزاً كبيرة ، قد عاشت فى نعمة ، وأدركتها حاجة ، لها عقل وافر ، وخلق طاهر ، وجمال ظاهر ، سوداء المقلتين ، كريمة المحتد ، رخيمة المنطق ، ريمها أرج ، ووجهها بهج . ثم مضى فى وصف خصرها وطولها وقصرها ، وما تبقى من خريطة جسمها ، حتى برم به الدلال فقال : استفتح أبواب الجنان فإنك سوف تراها (١) .

الأديبات الشواعر

إذا تم فى الجارية الشرط الأول ، أى اكتملت محاسنها ، فلم يشنها عيب ، أو يحط من مقامها نقص يتحول صاحبها الخليفة أو الأمير أو السرى إلى صقل ذهنها ، وتطويع لسانها ، وتلين حركاتها ، وإخراج الآلى من أصدافها . وكان الخلفاء بنوع خاص يعهدون إلى علماء اللغة ، بل إلى أئمتهم فى تثقيف قياتهم ، ليأخذون عنهم أسرار اللسان ، وما لحق بها من علوم كلامية تنفعهن فى حياتهن المقبلة . وينصب الجهد بنوع

(١) المحاسن والأضداد ص ١٧١ — ١٧٢ .

خاص على الجوارى اللواتى يعددن للتردد على المجالس حيث
تعقد حلقات المناشدة ، فيشاركن فيها عن معرفة وذوق . فلا
عجب إذا رأينا الخليفة هارون الرشيد مثلاً يبعث فى طلب
الأصمعى ليعرض عليه جارتين أهديتا إليه ، فسير علمهما
فوجد إحداهما لا تحتاج إلى مزيد علم ، كاملة الأدب ،
فصيحة اللسان ، تروى الأشعار والأخبار ، وتحفظ القرآن
والحديث ، وتجيد نظم الشعر (١) .

كان أصحاب هؤلاء الجوارى الحميلات المثقفات يفخرون
بهن ، كما يفخر كل إنسان بما يملك من ثمين المتاع ، أو بما
يتفرد به من النفائس والطرف . ويأذنون لهن حيناً بالظهور
على الأصدقاء ، أو يضربون بينهن وبين أصدقائهم حججاً ،
فيجلسن وراءها ويغنين ، أو يختلطن بهم ، ويتجاذبن معهم
الحديث ، فيتناشدون الشعر ، ويتسامرون بالقصص والأخبار .

عديدات هن الجوارى اللواتى كن يجارين الشعراء ارتجالاً ،
ولا سيما فى مطارح المحبون ، يقارعنهم مقارعة الند للند ، ويكتب
لهن النصر ، منهن عنان جارية الناطقى التى عاصرت الشاعر أبا
نواس ، وكان لها به صلات وثيقة ، يتردد مع رفاقه المجان على
منزل صاحبها ، فيجلسون إليها ويتناشدون ، فتشاركهم فى

النظم وتبذهم أحياناً . غير أن هذه المحاورات الشعرية كانت تغلو في المجون والإقذاع لما فيها من الإباحية والإفصاح دون التلميح . وفي كتاب المحاسن والأضداد مجلس من تلك المجالس تجوز قراءته ، ولا يحلونقله (١) . وأغرب ما في أمر عنان تلك المشادة الشعرية التي عنفت بينها وبين شاعرها في حضرة وجوه بغداد ، فشاء أن يؤلها ويخجلها ، فردت عليه رداً جارحاً تحدث به البغداديون وتناقلوه في مجالسهم حتى بلغ أسماع الخليفة فاستظرفه ، فدعا بها وبشاعرها ، واستعادهما ما جرى ، فأعجب بسرعة بداهتها ، وعنفت جوابها ، فطلبها من مولاها ، فاستام فيها مالا جزيلاً فردها .

لم تكن الجارية التي تسحر اللب بحسنها وعلمها نادرة في ذلك الحين . فكثيرات كن كذلك التي أقبلت على علي بن الجهم في مجلس أحد أصدقائه ، فإذا بها كالبدرة ليلة التمام ، بلون كأنه الدر في البياض ، مع احمرار في خدين كشقائق النعمان . فهمس صديقه في أذنه مداعباً عند طلوعها عليهما : « يا أبا الحسن : هذه الجنة التي كنتم توعدون » . فإذا بشفتي الجارية الفاتنتين تنفرجان عن نطق ساحر ، فرد عليهما شعراً ، ويحييانها على قولها غزلاً ومدحاً . وتقبل عليهما تحدثهما ، فإذا عقل

كامل ، وجمال فاضل . ثم اندفعت فغنت بنغمة مكية حتى طار عقلاهما (١).

تخريجهن في الغناء

كان الغناء شرطاً أساسياً من شروط الحسن . يشتري المغنون الجوارى بأثمان زهيدة فيعلمونهن فنهم ، ثم يبيعونهن بأفحشها ، فيربحون ربحاً كثيراً (٢). وكان القيانون والمسؤولون عنهن يرسلون بهن إلى منازل المغنين ليأخذن عنهم أصول الأصوات . وكثيرات منهن يتجشمن العقبات في الوصول إلى الأستاذ الماهر . وكان الخلفاء وأصحاب الشأن آنذاك إذا استمعوا إلى لحن فأعجبوا به أحبوا إلقاءه على جارية من جواريه لتردده عليهم عند ما يشاؤون . ولقد غنى إبراهيم بن المهدي الأمين أغنية أعجبت به ، فاستحسن اللحن ، فأمر بإحضار صبية له . فأخرجت إلى إبراهيم كأنها لؤلؤة ، وفي يدها عود . فطلب منه أن يلقى إليها الصوت ففعل . وأعادها مراراً ، والأمين يشرب ، حتى ظن أنها قد أخذته . فأمرها إبراهيم أن تغنيه ، فغنته ، فإذا هو قد استوى لها إلا في موضع كان صعباً جداً ، فجهد جهده أن

(١) المحاسن والأضداد ص ١٥٥ .

(٢) الأغاني ج ٣ ص ٢٥١ .

تتقنه طلباً لمسرة الخليفة ، فلم تتوصل إلى أخذه بته . ورأى
الأمين عناءه في أمرها وتعذره عليها ، فأقبل وقد سكر وقال :
نفيت من الرشيد ، وكل أمة لي حرة ، وعلى عهد الله لن
لم تأخذه في المرة الثالثة لآمرن بإلقائك في دجلة . والطبيعة آنذاك
في الربيع ، ودجلة طافحة ، وبينها وبين مجلس الأمين
نحو ذراعين . فتأمل إبراهيم القصة . فإذا بالخليفة قد طفح
سكراً ، والبحارية لا بد مخطئة في الإخراج . فلم يشأ أن يشترك
بدمها ، فعدل عما كان يغنيه عليه ، وترك ما كان يقوله ، وغناه
كما كانت هي تخرجه ، وجعل يردده حتى انقضت ثلاث
مرات ، فغنته على ما كان وقع لها ، وردده معها ، فطابت
نفس الأمين وسكن ، وأمر له بثلاثين ألف درهم^(١)

أثر الغناء

لا شك أن فتيان العرب كانوا يتحسون الغناء ، ويطربون
له ، حتى تهتز جميع مشاعرهم ، والشيوخ يماثلونهم في تذوقهم
هذا ، ويطمثنون إلى الوجه الصبيح ، والصوت الجميل . ويسرفون
في الإصغاء إلى غناء جواريم اللواتي يصطحبنهم في سفنهم
النهرية على دجلة والفرات . ينسابون على الماء ، والنهر طفاح ،
والضفتان معشبتان مزهرتان ، ويغردن لهم الجديد من الأصوات ،

(١) الأغاني ج ١٠ ص ١٢٧ - ١٢٨ .

والقديم من المعاني ، فيطربون ما شاء لهم إحساسهم ، ويشقون
 الجيوب ، ويخرج الشيوخ عن وقار السن ، وقد دب في
 أعصابهم أثر النغم ديب الحمرة ، فيأتون بالغريب من الأعمال ،
 فعل الشيخ الذي اصطحب شبانا في سفينة على الفرات ، ومعهم
 مغنية ، فلما صاروا في بعض الطريق قالوا للشيخ : معنا جارية
 لبعضنا ، وهي مغنية ، فأحبينا أن نسمع غناها ، فهبتك
 توقيراً ، فإن أذنت لنا فعلنا . قال : أنا أصعد إلى طلل السفينة —
 غطاء تغشى به كالسقف للبيت — فاصنعوا أنتم ما شئتم .
 فصعد ، وأخذت الجارية عودها وغنت :

حتى إذا أصبح بدا ضوءه وغابت الجوزاء والمرزم
 أقبلت والوطء حنى كما ينساب من مكته الأرقم
 فطرب الشيخ وصاح . ثم رمى بنفسه بشيابه في النهر ، وجعل
 يغوص فيه ، ويطفو ويقول : أنا الأرقم . أنا الأرقم ، فالتقوا أنفسهم
 خلفه ، فبعد عناء استخرجوه وقالوا له : يا شيخ ما جمل
 على ما صنعت ؟ قال : إليكم غنى . فلانى والله أعرف من معاني
 الشعر ما لا تعرفون . فسئل عما أصابه فقال : دب شيء من
 قدمي إلى رأسي كديب النحل ، ونزل من رأسي مثله . فلما
 وردا على قلبي لم أعقل ما عملت^(١) . واشترى يزيد بن عبد الملك

(١) الأغاني ج ٩ ص ٢٩١ — ٢٩٢ .

الجاريتين المشهورتين بحسن غنائهما وجمالهما : حباة وسلامة ،
 وأدخل الرجال عليهما للسمع . وكان يصغى إليهما ، فإذا
 طرب شق برده ، ثم قال : أطير ؟ فتقول حباة أو رفيقتها
 لا تظر . فإن بنا إليك حاجة^(١) . وكان إبراهيم الموصلي يلزم
 في شبابه قطربل وبارى وبنى وسواها من منزهات الفتيان ،
 واتخذ له في إحداها خماراً لطيفاً يخصصه بالشراب الجيد ، ويخبؤه
 له . فجاءه يوماً فلقبه بقوله : يا أبا إسحق : عندي شيء من
 بابتك . وكان إبراهيم قد عمل لحنه المعروف :

اشرب الراح وكن في شربك الراح وقورا
 فدخل بيته ، وبزل دفه ، وجعل يرجع الصوت ، فبهت
 ينظر إليه ، والنبيذ يجري حتى امتلأ الإناء وفاض على
 الأرض^(٢) .

لم يقتصر أثر الغناء على إثارة النفوس ، وتصابي الشيوخ ،
 والمبالغة في الإنفاق لشراء المغنيات الحميلات الصوت ،
 وإنما تعدى كل ذلك إلى التأثير في الحياة الاجتماعية بكاملها ،
 وإلى إيجاد طبقة من الناس مكرمة محترمة يصغر عندها الكبير ،
 ويلطف بين يديها العنيف ، وحتى استبد الغناء بالأذواق ،

(١) رسالة القيان ص ٦٦ .

(٢) الأغانى ج ٥ ص ١٩٧ .

وأصبح للمغنى والمغنية مقام رئيسى فى تكييف الأزياء ، وطبعها بطابع خاص ، وأصبحت الأصوات التى تردد فى مجالس الطرب أوفى حدائق التزهات ، وفى أزقة المدن ، تقوم أحياناً مقام الصحيفة السيارة فى الدعاوة لأمر من الأمور ، أوفى نقد نقيصة من النقائص . ومن غرائب المغنين أمر التاجر الكوفى الذى قدم المدينة بنحمر تغطى بها النساء رؤوسهن ، فباعها كلها وبقيت السود فلم تنفق . وكان صديقاً للدارمى الشاعر المغنى ، فشكا إليه حاله ، وكان قد نسك ، وترك الغناء ، والشعر . فطيب خاطره وقال له : لا تهتم بذلك ، سأنفقها لك حتى تبيعها أجمع ، ثم قال :

قل للمليحة فى الحمار الأسود ماذا صنعت براهب متعبد
قد كان شمر للصلاة ثيابه حتى وقفت له بباب المسجد
وغنى فيه ، وتداوله مشاهير المغنين ، وشاع على الألسنة فى كل مكان ، فقال الناس : قد فتك الدارمى ورجع عن نسكه . فلم تبق فى المدينة ظريفة إلا ابتاعت خماراً أسود ، حتى نفذ ما كان مع التاجر منها ، فلما علم الدارمى بذلك ، رجع إلى نسكه ، ولزم المسجد (١) .

سلامة وعامل المدينة

وما حدث لسلامة القس أبلغ مثال على أثر الغناء في النفوس ، وعلى سلطان المغنيات في قلوب الرجال ولا سيما- الرسميين منهم . فقد ولدت سلامة في المدينة ، ونشأت فيها ، وأخذت الغناء عن مشاهير هذا الفن ، وعرفت بسلامة القس لأن رجلا من قراء أهل مكة يلقب بالقس لعبادته وتقشفه ، شغف بها فغلب عليها لقبه . وكان مولاها يدخل عليها الشعراء ، فينشدها وتنشدهم وتغنى فيهم ما يشاؤون .

كانت الجوارى ، ومنهن المغنيات ، كثيرات العدد في المدينة ، وقد هويهن الناس ، بعد أن وجدوا عندهن ما لم يعثروا عليه من الفتنة عند الحرائر ، فأفسدن الأزواج على الزوجات وسلبن القلوب ، حتى ضجعت منهن المدنيات وأصحاب الدين ، فسعوا في إخراج هؤلاء القيان منها ، ليعيدوا الاطمئنان إلى النفوس ، ولكن أصحاب الأمر كانوا يتصامون عن سماع الشكوى ، ويفضون الطرف عما يحدث في عملهم . حتى ولى المدينة عامل مترمت ، يأبى على الناس إلا أن يحبوا كما يريد المحافظون ، فوجد عنده الشاكون أذنا صاغية ، فطلبوا منه أن يضع حداً للفساد ، وأن يطهر المدينة من الغناء ، وما يلحق به من المحجون ،

فسير المنادين — الجريدة الرسمية آنذاك — في الطرق ، يأمر
 المدنيين بإخراج المغنين والمغنيات ، وأجل القوم ثلاثة أيام
 لتنفيذ هذا القرار . وكان ابن أبي عتيق غائباً ، وهو من أهل
 الفضل والعفاف والصلاح . فلما كان آخر ليلة من الأجل
 المضروب قدم المدينة ، فذهب من توه إلى منزل سلامة ،
 فأخبرته الأمر ، وبما تخشاه من تهديد العامل الجديد . فانصرف
 من عندها واستأذن عليه ، ودخل فحياه ، ومدحه على إخراج
 أهل الغناء والمحجون وقال : ما رأيك ، أمتع الله بك ، في امرأة
 كانت هذه صناعتها ، وكانت تكره على ذلك ، ثم تركته ،
 وأقبلت على الصلاة والصيام والخير ، وأبت أن تغادر مشى
 الرسول . قال : أدعها . قال : اسمعها وأصغ إلى دعائها ، فإن
 رأيت أن مثلها ينبغي أن يترك تركتها . فرضى العامل باقتراحه ،
 وجاءه بها وقال لها : اجعلي معك مسبحة وتخشعي ، ففعلت .
 فلما دخلت على العامل حدثته ، فإذا هي من أعلم الناس
 بالناس ، فأعجب بها . وحدثته عن آباءه وأمورهم فقكه لذلك .
 فقال لها ابن أبي عتيق : اقرئي للأمير . فقرأت له . فقال لها :
 احدى له . ففعلت . فكثرت تعجبه . فقال : كيف لو سمعتها
 في صناعتها . فلم يزل يتزله شيئاً فشيئاً حتى أمرها بالغناء .
 فقال لها ابن أبي عتيق : غنى ، فغنت :

سددن خصاص الحتم لما دخلته

بكل لسان واضح وجين .

فقام الأمير من مجلسه فقعده بين يديها ، ثم قال : لا والله ، لا والله ! ما مثل هذه تخرج . فقال ابن أبي عتيق : لا يدعك الناس ، فهم يقولون : أقر سلامة وأخرج غيرها . فقال : دعوهم جميعاً . فتركوا على حالتهم .

وكان يزيد بن عبد الملك معجباً بها ، فلما ولي الخلافة اشتراها بعشرين ألف دينار . وعند ما خرجت من ملك أهلها شيعها الناس إلى ظاهر المدينة . واجتمعوا حولها عند انفصالها عنهم ، فأخذت عودها وودعتهم بغناء طريف ، ورددت صوتها إلى أن انصرفت ، وانتحب الناس بالبكاء عند ركوبها (١) .

الأخذ عن النوابع

ترتفع أثمان الجوارى إذا أخذن الغناء عن مشاهير الفنانين . لذلك حرص كل الحرص على أن تكون أجازتهن ممن ذاع اسمه ، واتفق الناس على تقديمه وتفضيله وترديد أصواته . كان هؤلاء المغنون يؤلفون مدرسة واسعة الانتشار ، عظيمة الشأن من حيث عدد المترددين عليها والمستقين منها ، حتى إذا أتقنت

(١) الأغاني ح ٨ ص ٣٢٤ — ٣٥١ .

القيان الفن ، ونضج حسنها ، وأقبل سراة القوم على ابتياعهن
تفرقن في الخلافة الإسلامية شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً ، وضرب
الزمان والمكان بينهما وبين معلميهن أكثف الحجب ، وانقطعت
صلتهن بهم أوكادت ، غير أنهن يحاولن حيث يتزلن أن يؤلفن
حلقة تقوم بالدعوة لفن المعلم ، وتنشر أصواته .

ولقد كانت هؤلاء المغنيات يقمن في الواقع بدور أسطوانات
الحاكي المعاصرة . تسجل عليها ألحان المعلم النابغ ، وتنشر
في جميع الأصقاع . فإذا أغرم أمير من الأمراء ، أو عامل من
العمال ، أوقائد من القواد بمغن مشهور ، صعب المنال ، أثير
في البلاط ، لا يقوى على تقريبه ، كان يعمد إلى شراء بعض
من تخرجن عليه من الجوارى ، فينقلن إليه ما يرغب فيه من
أصوات مطربة . غير أننا نسيء المقابلة إذا زعمنا أن الجارية
المغنية التي عاشت عهد ذلك لم تكن إلا مجرد أسطوانة
من جماد ، لا حياة فيها ولا فتنة ، تبرى بعد قليل من الدورات ،
فيحملها صاحبها في زاوية البيت ، لأن الأسطوانة القديمة
كانت تمتاز عن المعاصرة بارتفاع ثمنها حتى ينقد فيها الشاري
آلاف الدنانير ، وتتمازج بما فيها من حياة نابضة ، ودماء فائرة ،
ونظرات فاتكة ، ورقصات بارعة ، وبما تشيعه عيناها في ألحانها
من فتنة عارمة . وكانت تقوم أحياناً لدى صاحبها مقام المعلم

المثقف فيأتي لها- بالغريرات الحديثات ، فيأخذن عنها أصول
فنها ، حتى إذا حذقن شيئاً من هذه الأصول باع بعضاً منهن ،
فاستعاضن بأثمانهن قسماً مما دفعه مقابل الأولى .

وبما لا شك فيه أن صاحبها كان يسهر عليها سهرة على أعز
ما لديه ، فيهيئ لها الجو الملائم من حيث المناخ والطعام
واللباس ، ويغلو في مرضاتها ، والكشف على صحتها ، فلا يتأخر
في استدعاء أشهر الأطباء لمداواتها إذا نزل بها داء ، محافظة
على كنزه الثمين ، لأن خسارة مثل هذه الجوارى تعد كارثة
قاصمة .

تلميذة معبد

كان معبد قد علم جارية من جوارى الحجاز تدعى ظبية ،
وعنى بتخريجها ، فاشتراها رجل من أهل العراق ، فانصرف
بها إلى البصرة ، وباعها هناك ، فصارت في ملك رجل من أهل
الأنهار . وأعجب بها هذا ، وذهبت به كل مذهب حتى غلبت
عليه : ثم ماتت بعد أن أقامت عنده برهة من الزمن ، وأخذ
جواريه أكثر غنائها عنها . فكان لمحبتة إياها وأسفه عليها لا
يزال يسأل عن أخبار معبد ومستقره ، ويظهر التعصب له والميل إليه ،
والتقديم لغنائها على سائر أغاني أهل عصره ، إلى أن عرف ذلك

أحسن الناس غناء ، فسله أن يعيده علينا ولو مرة واحدة ،
لعلنا نأخذه عنه ، فإنه إن فاتنا لم نجد مثله أبداً . فقال : قد
سمعتن سوء رده عليكن ، وقد أسلفنا الإساءة ، فاصبرن حتى
نداريه . ثم غنى الثالث ، فزلزل عليهم الأرض . فوثب الرجل
إليه ، وقبل رأسه وقال : يا سيدى أخطأنا عليك ، ولم نعرف
موضعك . وأنا أعتذر إليك مما جرى ، وأسألك أن تنزل إلى
وتختلط بى . وعرف كل صاحبه ، ووعدته معبد أن لا يقصر فى
تعليم جواريه ، وأن يجعل له فى كل واحدة منهم خلفاً من
الماضية . فأكب الرجل والجوارى على يديه ورجليه يقبلونها (١) .
كثيراً ما كان المشاهير من المغنين يصادفون فى الرحلات
التي يقومون بها جماعات من الجوارى اللواتي تخرجن على أيديهم ،
وقد بسم لمن الزمن ، وحظين لدى موالين ، ونعمن بالعيش
الرفيه ، فيحسن وفادتهم وتكريمهم ، كما حدث لإبرهيم
الموصلى عند ما دخل الرى — مدينة مشهورة بالفواكه
والمتزهات ، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخاً ، وتزوج
إبرهيم منها — فألف فتية من أهل النعم بها — وهم لا يعرفون
فضله ، ولا يفطنون إلى إجادته الغناء . وطال عليه العهد ، وهو
على تلك الحال إلى أن دعاه أحدهم ليلة إلى منزله ، وكان عنده

جارية . فد لها ستارة وغنت خلفها . فرآها صالحة الأداء ،
 كثيرة الرواية ، فأظهر ذلك فيه الشوق إلى الغناء ، وإلى مرابعه
 في العراق ، فدعا بعود واندفع يغنى صوته المعروف :
 أنا بالرى مقيم ...

وكان قد نظم هذا الشعر ، وصنع هذا اللحن قديماً بالرى ،
 فخرجت الجارية من وراء الستارة مبادرة إليه ، وأكبت على
 رأسه وقالت : أستاذى والله . فقال لها مولاه : أى أستاذيك
 هذا ؟ قالت إبراهيم الموصلى . فإذا هى إحدى الجوارى اللواتى
 أخذن عنه ، وطال العهد بها . فأكرمه مولاه ، وبره .
 ونخلع عليه (١).

جوارى القصور

أبناء الجوارى

تسربت الجوارى المليحات إلى بلاط الخلفاء ، ومنازل
 الأمراء والقواد ، فاستلبن لب موالين ، حتى أصبح هؤلاء
 لا يصدرون أمراً إلا عن رغبة هن . وقد حاول بعض الخلفاء
 الأمويين ، ولا سيما معاوية ، إقصاء النساء الدخيلات عن النفوذ ،
 وأن يحصرهن في الحدر ، فلا يتناولن إلى السلطة ، وذهب
 التحفظ بالأشياخ المترمتين إلى الخط من أقدار أبناء الجوارى ،
 ونصحوا بالابتعاد عنهن ، لأنهن يفسدن العرق العربى ، ويضعفن
 العصبية القديمة . ونظر كثيرون من هؤلاء إلى المهجناء نظرة
 احتقار وامتهان أول الأمر ، إلى أن كثر عددهم ، وكان منهم
 أبناء خلفاء وأشراف . فقد روى رجل من قريش قال : كنت
 أجالس سعيد بن المسيب ، وهو من هؤلاء المحافظين المتشددين
 في شؤون العرق ، فقال لى يوماً : من أخوالك ؟ فقلت : أمى
 فتاة . فكأنى نقصت فى عينه . فأمهلت حتى دخل سالم بن
 عبدالله بن عمر بن الخطاب ، فلما خرج من عنده قلت : يا عم ،

من هذا ؟ فقال سبحانه الله . أتجهل مثل هذا من قومك ؟
 هذا سالم بن عبد الله بن عمر . قلت : فمن أمه ؟ . فقال : فتاة .
 ثم أتاه القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق فجلس عنده ،
 ثم نهض . فقلت : يا عم . من هذا ؟ فقال : أتجهل من أهلك
 مثله ؟ ما أعجب هذا ! هذا القاسم بن محمد بن أبي بكر
 الصديق . قلت : فمن أمه ؟ قال : فتاة . فأمهلت شيئاً حتى
 جاء علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، فسلم عليه ، ثم
 نهض . فقلت : يا عم . من هذا ؟ قال : هذا الذي لا يسع
 مسلماً أن يجهله ، هذا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب
 فقلت : من أمه . ؟ قال : فتاة . قلت : يا عم . رأيتني نقصت
 في عينك لما علمت أنني لأم ولد . أفألى في هؤلاء أسوة قال :
 فجعلت في عينه جداً (١) .

وكانت هذه الكراهية تتعدى الأغراب أحياناً إلى الآباء
 أنفسهم ، فيفضلون أولادهم من الحرائر على الذين أنجبهم
 الجوارى ، كما حدث عند ما استبق بنو عبد الملك في حلبة
 الجياد ، فسبقوا مسلمة ، وكان ابن أمة ، فتمثل عبد الملك
 بقول عمرو العبدى القائل :

(١) الكامل ج ١ ص ٢٥٢ ؛ المشرق ج ٣ نور ١٩٣٧ .

نهيتكموا أن تحملوا فوق خيلكم
 هجيناً لكم يوم الرهان فيدرك
 فتعثر كفاه ويسقط سوطه
 وتخسر سباقه فما يتحرك
 وهل يستوى المرءان : هذا ابن حرة
 وهذا ابن أخرى ظهرها متشرك
 فقال له مسلمة : يغفر الله لك يا أمير المؤمنين . ليس هذا
 مثلي ، ولكن كما قال ابن المعمر :
 فما أنكحونا طائعين بناتهم
 ولكن خطبناهم بأرماحنا قسرا
 فما زاد ما فيها السباء مذلة
 ولا كلفت خبزاً ولا طبخت قدرا
 وكم قد ترى فينا من ابن سبية
 إذا لقي الأبطال يطعنهم شذرا
 ويأخذ ريان الطعان بكفه
 فيوردها ييضا ويصدرها حرا
 فقبل رأسه وعينه وقال : أحسنت يا بني . ذاك والله أنت .
 وأمر له بمائة ألف درهم مثلما أخذ السابق^(١) .

ولا شك أن هذه الحالة قد تعدلت فيما بعد ، وتحولت إلى تقيض ما كانت عليه ، وأصبح العرب يسعون جاهدين في إنجاب الهجناء ، لأنهم فطنوا إلى أن الزواج في التزائج — اللواتي يتزوجهن في غير عشيراتهم — يؤدي حتماً إلى إنجاب أولاد أشداء أقوياء . فرغب كثيرون منهم في البناء بالأعجميات ، وقد قال أحدهم : بنات العم أصبر ، والغرائب أنجب ، وما ضرب رؤوس الأبطال كأبن الأعجمية (١) .

ومن الثابت أن التدله بالأعجميات لم ينتج معظمه عن الرغبة في النسل القوى النشط ، وفي الإتيان بجيل تمتزج في عروقه الدماء العربية والأعجمية ، وإنما هذا التدله ناشئ عن ميل جنسى عنيف ، وعن انتقال فرسان العرب من بلد إلى آخر ، وابتعادهم عن العرييات الحالصات ، وكان لا بد لهذا الاتصال من أن يؤدي إلى إنجاب الأولاد . وقد فتن كثير من العرب في أول عهدهم بلون الأعاجم المشرق ، وسرهم أن يكون أبناؤهم على شيء من البياض ، وبلغ إعجابهم بأبناء الأعاجم أنهم كانوا يفضلونهم علناً على أبنائهم السمر الوجوه أو المائلين إلى السواد . فقد قال رجل من أبناء المهاجرين : أبناء هذه الأعاجم كأنهم نقبوا الجنة ، وخرجوا منها ، وأولادنا كأنهم

(١) عيون الأخبار ج ٤ ص ٣ .

مساجر التناير^(١) وقال آخر : من أراد قلة المؤونة ، وخفة النفقة ، وحسن الخدمة ، وارتفاع الحشمة ، فعليه بالإماء دون الحرائر . وقال ثالث : عجبت لمن استمتع بالسراى كيف يتزوج المهائر .

نفوذهن

أخذ نفوذ الجوارى يقوى شيئاً فشيئاً حتى أصبحن المرجع الرئيسى فى كثير من القضايا . وسعى مؤسسو الدولة العباسية للحد من سلطانهن وإضعاف شأنهن ، فكانوا يتفحصون أمر اللواتى يدخلن قصورهم ، فإذا وجدوهن ذوات أسر ، لهن أهل ، امتنعوا عن شرائهن ، والبناء بهن . وكان الخليفة المنصور أكثر العباسيين تشدداً فى هذا الباب . لذلك كانت الجوارى يعتمدن أحياناً إلى الحيلة ، حتى إذا ولدن للخلفاء أسفرن عن حقيقتهن ، وأبن نسبهن ، كما فعلت الجارية الخيزران التى كانت لرجل من ثقيف ، فقدم بها مكة فباعها فى الرقيق . فاشترى وعرضت على المنصور فقال لها : من أين أنت ؟ . فقالت : المولد مكة ، والمنشأ جرش . قال : ألك أحد ؟ قالت : ما لى أحد إلا الله ، ما ولدت أمى غيرى . قال : يا غلام .

(١) عيون الأخبار ج ٢ ص ٣٩ .

اذهب بها إلى المهدي ، وقل له : تصلح للولد . فأتى بها المهدي فوَقعت منه كل موقع . فلما ولدت موسى وهرون قالت : إن لي أهلاً يجرش قال : ومن لك ؟ قالت : لي أختان اسمهما أسماء وسلسيل ، ولي أم وأخوان . فكتب غآنى بهم ، فتزوج جعفر بن المنصور سلسيل ، فولدت منه زبيدة ، واسمها سكيئة ، وهي التي تزوجها الرشيد . وقال المهدي للخيزران : قد ولدت رجلين بايعت لهما ، وما أحب أن تبقى أمة ، بل أود عتقك ، فخرجت إلى مكة ، وعادت منها فتزوجها (١) .

ومنذ ذلك العهد غدت الجوارى أقرب النساء إلى قلوب الخلفاء ، وأكثرهن نفوذاً عندهم . فملك ذات الحال زمام هرون الرشيد حتى أنه أقسم يوماً أنها لا تسأل شيئاً إلا قضاه لها فطلبت منه أن يولي أحد المقرين إليها الحرب والخراج بفارس سبع سنين . فامثل لها ، وكتب له عهداً به ، وشرط على ولي عهده بعده أن يتمها له ، إن لم تتم في حياته (٢) .

وهارون الرشيد هو أول من غالى من العباسيين في تفضيل الجوارى وتكريهن . فإن معظم أولاده كانوا أبناء إماء : منهم عبدالله المأمون وأمه أم ولد فارسية يقال لها مارجل ، والقاسم

(١) المحاسن والأضداد ص ١٨٠ — ١٨١ .

(٢) الأغاني ج ١٥ ص ٨٠ .

المؤمن وأمّه أم ولد يقال لها قصف ، ومحمد أبو إسحق المعتصم وأمّه أم ولد يقال لها ماردة ، وهى تركية الأصل ، وكان لها أثر كبير فى أخلاق ابنها ، فدعاه ميله إلى أمه إلى استدعاء الأتراك الذين أضعفوا النفوذ فى الفارسية والعربى ، وانتزعوا من الخلفاء العباسيين كل سلطان . ومن أولاد هارون الرشيد صالح وأمّه أم ولد يقال لها رثم ، ومحمد أبو عيسى وأمّه أم ولد يقال لها عرابة ، ومحمد أبو يعقوب وأمّه أم ولد يقال لها شذرة ، ومحمد أبو العباس وأمّه أم ولد يقال لها خبث ، ومحمد أبو سليمان وأمّه أم ولد يقال لها رداح ، ومحمد أبو على وأمّه أم ولد يقال لها دواج ، ومحمد أبو أحمد وأمّه أم ولد يقال لها كتمان^(١) .

فإن تعلق العربى بانتسابه إلى آبائه وجدوده وقبيلته قابله بعد الفتوح تهاون فى نسب الأم ، حتى ندر من الخلفاء من أمه حرة ، وكاد يلى الخلافة فى مبتهل القرن الثالث الهجرى إبراهيم ابن المهدي ، وهو شديد السواد ، براق اللون ، وأمّه أم ولد سوداء حالكة اللون .

كثيراً ما كانت الجوارى يشتركن فى المؤامرات التى تحاك فى البلاط عند خلع خليفة ومبايعة آخر . بعضهن قمن بأدوار حاسمة فى تاريخ العباسيين : منهن الجارية أم المقتدر الذى ولاه

(١) الطبرى ج ٦ ص ٥٤٠ .

الأتراك الخلافة وهو صبي في الثالثة عشرة من عمره ظناً منهم أن
يوسعهم التصرف باسمه بشؤون الخلافة كما يشاؤون لضعفه وصغر
سنه . فإذا بهم يلاقون عنتاً شديداً من أمه ، وهي أم ولد
رومية . فقبضت على أزمة الأمور ، وقادت شؤون الدولة بحزم
وحنكة مدة ربع قرن ، وهي أطول مدة تولى فيها عباسي
الحكم آنذاك . وخلع الخليفة أثناء حكمه مرتين كانت أمه تسعى
إلى إعادته إلى كرسي الخلافة إلى أن تألب عليه الخصوم ،
فخرج لقتالهم فصرعوه . والحرارية الشيرازية حسن التي عاشت
في البلاط أيام الخليفين المتق والمستكفي هي التي سعت في
إقصاء الأول عن الخلافة ، وأوعزت إلى غلامها السندی بـسمل
عينيه عند ما أحجم القواد عن فعل ذلك ، وتسلطت على الثاني
حتى أقضت مضجعه ، وقضت عليه فيما بعد . وقد اندثرت في
الخليفة الطائع جميع ملامح الجنس العربي ، فكان شبيهاً بسكان
المناطق الشمالية الباردة ، أبيض أشقر البشرة والشعر ، أزرق
العينين ، طويل القامة حسن الجسم ، شديد القوة .

أديانهم .

وكما أن الجوارى متعدّدات المصادر والأجناس والألوان

فهن مختلفات أيضاً في الدين . يتمين عادة إلى الإسلام أو النصرانية أو اليهودية أو المجوسية . وأما الوثنيات الأصل فيسارعن إلى اعتناق الإسلام ديناً . وكثيراً ما تتحول الكتابيات أنفسهن إلى الدين الحنيفي ، ويقمن بالشعائر اللازمة في مثل هذه الأحوال تقريباً من أسيادهن الذين كانوا يحررون بعضهن للتزوج منهن زواجاً شرعياً . ينتقلن إلى الاسلام ، لأن الاختلاف في الدين يؤدي حتماً إلى أن لا يرث أحدهما الآخر . لذلك كانت الجوارى الكتابيات يسلمن أو يتظاهرن بالإسلام ليرثن أزواجهن الأغنياء بعد موتهم . ولم يكن اعتناقهن الدين الجديد بالأمر الصعب المنال ، بل ينحصر ذلك بأن تشهد الجارية على نفسها أمام أحد الشيوخ ، وأن يكتب النص الآتي :

« حضر إلى شهوده في يوم تاريخه من ذكر أنه حضر إلى مجلس فلان — أدام الله أيامه — فلان بن فلان الفلاني (أو فلانة) ، وأشهدهم على نفسه أنه تلفظ بالشهادتين المعظمتين ، وهما شهادة أن لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، أرسله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ، وأن عيسى بن مريم عداة وبيه ، ومريم أمة الله ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وأفضل المرسلين ، وأن شريعته أفضل الشرائع ،

وملته أفضل الملل ، وأن ما جاء به عن الله حق . وقال : أنا برئت من كل دين يخالف دين الإسلام . ودخل في ذلك طائفاً مختاراً ، وأشهد عليه بذلك ، وتلفظ به بتاريخ كذا وكذا .

فإن أسلم يهودى (أو يهودية) كتب موضع عيسى : وأن موسى عبد الله ونبيه ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء وشريعته أفضل الشرائع . وأن شريعة محمد (ص) نسخت شريعة موسى وجميع الشرائع إلخ . . . (١) .

أما الجوارى اللواتى يبقين في الرق فيحافظن في أغلب الأحيان على دينهن القديم ، ويقمن بشعائره ، ويتقيدن بنواحيه ، ويتساهل أسيادهن معهن في ذلك ، فلا يكرهونهن على تغيير عقيدتهن ، وإنما يحترمون دينهن ، ويسهلون لهن القيام بالطقوس والفروض الخاصة في المواسم والأعياد . وليس من الغريب في شيء أن يدخل المقربون من المأمون مجلسه فيجدون جماعة من الجوارى الروميات وقد تمنطقن بالزنار ، وتزين بالديباج الرومى ، وعلقن على أعناقهن صلبان الذهب ، وأخذن في أيديهن الخوص والزيتون بمناسبة عيد الشعانين ، وهن في مرح وبهجة ، والمأمون ينظر إلى ذلك ، ولا يستغرب ما يجزى

حوله (١) . فمن المغالاة ، بل من الإسراف في المغالاة ، القول إن المسلمين أكرهوا جوارهم على تبديل دينهم . ولعل كثيراً من الشعائر النصرانية واليهودية والمجوسية كانت تقام في قصور الخلفاء ، أمراء المؤمنين ، الذين يرمزون إلى أرفع سلطة زمنية وروحية في الإسلام .

أدى تدين الجوارى بغير دين السادة ، وتسربهن إلى جميع القصور ، والخطوة التي كانت لهن في القلوب إلى ظهور نفوذ الأخوال الأعاجم من فرس وترك وروم ، وإلى تنفيذ طوائف من رجال الأديان التي تدين بها الجوارى المخطوبات الرفيعات المقام . ولسنا نعجب بعد هذا إذا طالعنا في كتب التاريخ أن كثيرين من الخلفاء والوزراء والأمراء والعمال قربوا إليهم غير المسلمين وأنعموا عليهم بالخيرات ، ووسعوا عليهم ، وحكموهم بسواهم وبالمسلمين أحياناً ، لأن أمهات هؤلاء المتنفذين على دين النصراني أو اليهود أو المجوس . فكان للمقتدر خال يروى يعرف باسم غريب ، يخاطبه الناس بالإمرة ، وهو ذو سلطان ، يرهبه الناس ، ويتقربون إليه في سبيل الوصول إلى ما يريدون من نعم الخلافة .

والدة الأمير القسرى

من أوضح الأمثلة على هذا النفوذ ما جرى للأمير خالد بن عبد الله القسرى عامل العراق للأمويين مع أمه النصرانية ، وهى رومية الجنس ، تغزل بها أحد الشعراء فقال مدافعاً عن نصرانيتها وزرقة عينيها :

يقولون نصرانية أم خالد فقلت دعوها كل نفس ودينها
فإن تلك نصرانية أم خالد فقد صورت صورة لا تشينها
أحبك إن قالوا بعينك زرقة كذاك عتاق الطير زرق عيونها

وقد تأدبت بآداب العرب ، ولقنت لغتهم وفصاحتهم حتى طاع لها نظم الشعر أيضاً . وكان ابنها خالد محسناً إلى أهل الذمة يعرف لهم أقدارهم ، ويقلد من يصلح منهم الأعمال الديوانية . وهو أمر أنكره عليه هشام بن عبد الملك^(١) ، ويظهر أنه لم يكن فى زمانها كنيسة للروم الملكيين فى الكوفة ، ويشق عليها أن تشهد صلوات النساطرة واليعاقبة ، فسألت ابنها أن يبنى لها بيعة خاصة بمذهبها البيزنطى . فبنى دعوتها ، وأقام لها البيعة المنسوبة إليه ، وبنى حولها حوانيت بالآجر والجص . وهدمت

(١) الأغاني ج ١٩ ص ٥٩

بعد قتله ، وصار في مكانها سكة البريد (١).

إخلاصهن

بما لا شك فيه أن الخداع كان أسرع إلى قلوب قيان الحانات وبيوت القيانين مما هو إلى قلوب الجوارى اللواتي يلقين مراسيهن في منازل أصحابهن فيأمن فيها تقلب الأيام ، وسوء المصير . وبما لا شك فيه أيضاً أن بعض الجوارى كن يخلصن لأصحابهن إخلاصاً عميقاً عنيفاً لا يزعزعه الحدثان ، ولا يضعفه ترهيب أو ترغيب ، كذلك الجارية الحسنة التي كانت للوائق ، فلما أخذها المتوكل أرادها على الغناء ، فأبت أن تغنى وفاء لصاحبها ، فأقام على رأسها خادماً ، وأمره أن يضرب رأسها أبداً أو تغنى ، فغنت مكرهة مستعبرة (٢) . وكثيرات من الجوارى ذهبن في إخلاصهن لأسيادهن مذهباً لم تدانه الحرائر الأصيلات ، والأمثلة على ذلك عديدة . فإن دنانير كانت جارية مولدة من أحسن الناس وجهها وأظرفهن وأكملهن أدباً ، وأكثرهن رواية للغناء والشعر . فلما رآها يحيى بن خالد البرمكي ، أعجب بها فاشتراها ، وأتم تثقيفها على إبراهيم الموصلي حتى كانت تغنى غناءه فتحكيه ،

(١) حبيب الزيات - من الخزانة الشرقية - المشرق ج ٣ تموز ١٩٣٧

(٢) الأغاني ج ٤ ص ١١٥

فلا يكون بينهما فرق . وأغرم هرون الرشيد بفنها . فكان يتردد على صاحبها ، ووهب لها يوماً عقداً قيمته ثلاثون ألف دينار ، حتى عابه أهله على ذلك . وشغف بها صاحبها حتى كان يتصدق عنها في كل يوم من شهر رمضان بألف دينار ، لأنها كانت لا تصومه . وعند ما نكب البرامكة ، وحل الوبال بصاحبها ، دعاها الرشيد إلى قصره ، وأمرها أن تغني فقالت : يا أمير المؤمنين إني آليت ألا أغني بعد سيدي أبداً . فغضب وأمر بصفعها ، فصفعت ، وأقيمت على رجلها ، وأعطيت العود فأخذته وهي تبكي أحربكاء ، واندفعت فغنت :

يا دار سلمى بنازح السند بين الثنايا ومسقط اللبد
لما رأيت الديار قد درست أيقنت أن النعيم لم يعد

متيم

وكذلك أمر الجارية متيم ، وهي صفاء من مولدات البصرة . فيها نشأت وتأدبت وبدأت بالغناء ، بعد أن أخذت عن مشاهير المغنين الذين عاصروها ، كإسحق الموصلي . فاشتراها على بن هشام ، وهو من أمراء المأمون وقواده ، وتولى له حرب بابك الخرمي ، ثم غضب عليه ، لأنه استعمله على أذربيجان وغيرها ،

فبلغه ظلمه وأخذهُ الأموال ، فقتله (١) . عند ما اشتراها علي بن هشام كانت لا تزال جويرية ، فدفع فيها عشرين ألف درهم ، فازدادت في مجلسه جمالا وتفتناً بالغناء لكثرة من كان يغشاه من مشاهير المغنين ، واستفادت أدباً وعلماً . ونظمت الشعر ارتجالاً وعن روية ، وتقدمت على جواريه معرفة وحظاً . وقد سأل المأمون علي بن هشام أن يهبها له لإعجابه بجمالها وغناها ، فأبأها عليه ، وحرص علي أن تصبح أم ولد فيأمن عليها من طمع المأمون . ويقال إن امتناع علي من التزول عنها كان من الأسباب التي دعت إلى النعمة عليه وقتله .

عند ما فتك المأمون بصاحبها عتقت ، وكانت قد ولدت له أكثر أولاده ، فلم يتوصل إليها الخليفة ، وإن استصفي مال علي بن هشام ، وأخذ جواريه غير أمهات الأولاد . وقد حزنت متم على مولاهما حزناً شديداً ، وأخلصت له طول عهد المأمون ، ولم يذكر المترجمون لها أنها غنت للخليفة بعد أن أوقع بعلي ، وإنما يذكرون أنها مرت مع نسوة وهي متخفية بقصر علي بن هشام بعد أن قتل ، فلما رأت بابه مغلقاً لا أنيس عليه ، وقد علاه التراب والغبرة ، وطرحت في أفنيتها المزابل ، وقفت وناحت

(١) الطبرى وابن الأثير في حوادث ٢١٧ هـ

عليه ، ثم بكّت حتى سقطت من قامتها . وجعل النسوة يناشدنها الله في أن تكف وتسير ، لئلا تؤخذ . وبعد لأي ، حملنها تنهاى ينيهن ، حتى تجاوزت الموضع . ويذكر أيضاً أنها عادت إلى الغناء أيام المعتصم ، بعد قدومه بغداد . فقد دعا بها ، فذهبت إليه فأمرها بالغناء ، فغنت :

هل مسعد لبكاء بعبرة أو دماء

فطلب منها العدول عنه إلى غيره ، فغنته بمعناه ، فدمعت عيناه وأشار بالانتقال إلى معنى آخر فغنته :

لا تأمن الموت في حل وفي حرم

إن المنايا تغشى كل إنسان

فقال : والله لولا أني أعلم أنك إنما غنيت بما في قلبك لصاحبك وأنت لم تريديني لمثلت بك . وأمر من كان بين يديه ، فأخذوا بها وأخرجوها من مجلسه . ولعلها عادت فيما بعد إلى المعتصم واستأنفت الغناء في حضرته ، إلى أن توفيت .

فارقت متيم الحياة قريب وفاة إبراهيم بن المهدي المعروف ببجبال الصوت وعقب وفاة بذل القينة المشهورة . فقالت جارية ظريفة للمعتصم ، وقد أسف على موت هؤلاء الفنانين الثلاثة : يا سيدى ! أظن أن في الجنة عرساً فطلبوا هؤلاء إليه . وحدث أن



وقع حريق في حجرة هذه البخارية بعد قليل ، فأتى على كل ما
 تملكه ، وسمع المعتصم الجلبة ، فدعا بها ، وسألها عما أصابها ،
 فقالت يا سيدى احترق كل ما أملكه . فقال : لا تجزعى !
 فإن هذا لم يحترق ، وإنما استعاره أصحاب ذلك العرس (١).

الجوارى السميرات

طبقة خاصة .

من الجوارى صنف آخر قد لا تقطن إلى وجوده في عصرنا الحاضر ، وهو مزيج من ذلك النوع الذى رأيناه في الحانات المغالى في الفتنة وفي خدمة الزين ، ومن النوع الآخر الذى يعيش في منازل الأسياد حياة الحرائر أو ما يشبه حياتهن ، ومن النوع الثالث الشائع الذى يعرض في أسواق النخاسين . النوع الآخر الخليط من هذه الأنواع كلها ، والذى يطلق عليه اسم الجوارى السميرات يتألف عامة من القيان البارعات في الغناء والرقص وفنون الغواية . يعشن في كنف أسيادهن عيشة تتراوح بين عيشة أمثالهن في عهدة النخاسين والمتسرين . ليس لأصحابهن عليهن غيرة السيد الأنوف ، وليس في صدورهم حمية المولى المتفرد بسراريه ، فهم يسمحون لهن بالخروج إلى الناس والزائرين أو المرابطين — كما كانوا يقولون بلغة ذلك العصر — وهؤلاء يقدون في ساعة معينة من النهار أو الليل ، فيجلسون إليهن ويصغون إلى غنائهن ، ويمتعون أبصارهم برقصهن البارع ؛

وجماهن المانع ، والسيد يتلطف في فرش المنزل بالبسط الغالية ،
والنمارق المزركشة ، ويوزع الطنافس في الزوايا ، ليستريح
عليها هؤلاء المرابطون . وهو يتكلف لهم هذا العناء ، ويش في
وجوههم لأنهم يحملون إليه الطرف والهدايا من أفخر الحمر ،
وأطيب النقل ، وأندر العطور ، وشفيف النسيج . وهم إلى جانب
ذلك يبرون السيد أحياناً بالمال ، ويرفهون عنه بعض مشقة
الحياة . ينتمون إلى جميع الطبقات الاجتماعية ، من قضاة وحكام
وقواد وشعراء وتجار . وكل منهم يعطف على السيد صاحب
البحارية أو الجوارى ، ويسهل له أموره ، ويحل له ما تعقد
منها ، ويساعده في قضاء حاجاته . يقصدون إليه من مكان
قصي ، كما يقصدون الخلفاء والأمراء وعظماء الرجال . فيزار
ولا يكلف الزيارة ، ويوصل ولا يحمل على الصلة ، ويهدى
له ، ولا تقتضى منه الهدية . لا يهتم هذا القيان بغلاء الدقيق ،
ولا عوز السوق ، ولا عزة الزيت ، ولا فساد النبيذ . وهو
يستقرض ولا يرد ، ويسأل الحوائج فلا يمنع . يكتفى إذا
نودى ، ويفدى إذا دعى ، ويحجى بطريف الأخبار ، ويطلع
على مكنون الأسرار . ويكفيه أصحاب النفوذ من المترددين عليه
عادية الشرط والأعوان ، فيعيش مطمئناً (١).

المرابطون

يكتفى كثيرون من هؤلاء المرابطين الذين يفدون على منازل القبانين في زياراتهم على السماع والنظر ، وتناقل الأخبار ، وتطرح الشعر . ولعلمهم كانوا أيضاً يجدون فيها ما يجده المعاصرون في صالات الأدب من متعة ، غير أن القدماء يضيفون إلى وقار العلم والبحث الجدى بعض توابل الاجتماع من رقص وغناء . وكان بعضهم يفرج في هذه الحلقات الأدبية الفنية عن نفسه ، بعد أن حجزها طول نهاره في وقار عمله الرسمي ، فليس من الغرابة في شيء إذا رأينا ابن فهم الصوفي عند سماعه غناء « نهاية » جارية ابن المغنى يضرب بنفسه الأرض ، ويتمرغ في التراب ، ويهيج ويربد ، فإذا دنا منه أحد عض بنابه ، وخمش بظفره ، وركل برجله (١) . أو إذا رأينا ابن غيلان البزاز عند ما يسمع ترجيعات « بلور » جارية ابن اليزيدى تنقلب حاليق عينيه ، ويسقط مغشياً عليه ، فلا يستفيق إلا بعد أن ينضح بالكافور وماء الورد ، ويقرأ في أذنه آية الكرسي والمعوذتين (٢) أو إذا رأينا أبا الحسن الجراحى قاضى الكرخ الوقور عند ما يسمع

(١) الإمتاع والمؤانسة ج ٢ ص ١٦٦

(٢) الإمتاع والمؤانسة ج ٢ ص ١٦٧

غناء شعلة تبطل شيبته بالدموع حتى يرق له الحاضرون
فتنحدر دموعهم رحمة له ، ورقة عليه . فقد كانت هذه المجالس
تضم جماعات شتى ، متنوعة الأذواق ، متعددة المراتب والمقامات
الاجتماعية . يوحد بينهم حبهم للغناء ، ورغبتهم في التملق من
الملاحاة الدافقة في وجوه القيان . وقد أحصى أبو حيان التوحيدي
حوالى سنة ٣٦٠ للهجرة السميرات على ضفتي دجلة ، فإذا
بهن يبلغن أربعمائة وستين جارية ، يجمعن بين الخلق والحسن
والظرف والعشرة ، سوى من كان لا يظفر به ، ولا يوصل إليه
لعزته وحرسه ورقبائه ، سوى ما كان يسمعه ممن لا يتظاهر
بالغناء وبالضرب إلا إذا نشط في وقت أو ثمل في حال (١) .

ولقد وضع الجاحظ رسالة في القيان ، كتبها على لسان
القيانين ، ووجهها إلى أهل الجاهالة والحقاء وغلظ الطبع ،
وفساد الحس ، وأورد في مطلعها جدولاً بأسماء
مشاهيرهم في عصره ، وذكر فضائلهم ومقامهم الرفيع في
المجتمع ، وسعى الناس في خطب ودهم ، كعادته إذا أراد
أن يهزل في أمر ، أو أن يسخر من جماعة . وبوسعنا أن نتمثل
بعض ما كان يدور في مجالس السميرات من محاورات
ومساجلات ، ومن تحايل في إدخال السرور إلى قلوب المرابطين ،

ومن إسراف في الشراب والتندر ، بأن تقف على ما حدث يوماً في مجلس منها ، اشتهر في المدينة ، وعرف بمجلس ابن نفيس .

مجلس ابن نفيس

كانت بصيص جارية ابن نفيس حلوة الوجه ، حسنة الغناء ، أخذت أسرارها عن الطبقة الأولى . وكان مولاهما صاحب قيان ، يزوره الأشراف ، ويستمعون إلى فتياته ، ويفد إليه فتيان قریش في عهد الخليفة العباسي المهدي ، فينعمون بمجلس جاريته . وقد اجتمع أشراف المدينة عندها يوماً ، وتذاكروا أمر رجل يدعى مزيد ، وهو صاحب نوادر في البخل ، حري أن يتحدث عنه الجاحظ ، فزعمت بصيص أن بوسعها أن تأخذ منه درهماً . فوعدها صاحبها بأن يحررها إن لم يشتريها مخنقة بمائة ألف دينار ، وثوب وشي ، وأن يجعل لها مجلساً بالعقيق ، وينحرف فيه بدنة لم تقب ولم تركب ، فيما إذا توصلت إلى الحصول على درهم مزيد . فطلبت إحضاره ، وأن يكف عنها الغيرة مهما بدا منها ومنه . وحيء به عند العصر ، وكان المجلس عامراً بالأشراف ، فأكلوا وشربوا ، وتساكروا وتنادموا . فأقبلت الجارية بصيص على مزيد فقالت : أبا إسحق . كأنك تشهى

أن أغنيك . فقال : زوجته طالق إن لم تكوني تعلمين ما في اللوح المحفوظ . فغته . ثم مكثت قليلا وقالت : أبا إسحق ! كأن نفسك تشهى أن تقوم من مجلسك فتجلس إلى جانبي وتداعبني وأغنيك . فقال : امرأته طالق إن لم تكوني تعلمين ما في الأرحام ، وما تكسب الأنفس غدا ، وبأى أرض تموت . فانتقل إلى قريبها فغته . ثم قالت : برح الخفاء ! أنا أعلم أنك تشهى أن تقبلني شق التين ، وأغنيك هزجا . فقبلها وغته . ثم قالت : أبا إسحق ! أرايت أسقط من هؤلاء . يدعونك ويخرجونني إليك ، ولا يشترون ريحانا بدرهم . أى أبا إسحق ، هلم درهما نشتري به ريحانا . فوثب وصاح : واحرباه . إى . . . انقطع والله عنك الوحي الذى كان يوحى إليك . وعطط القوم بها ، وعلموا أن حيلتها لم تنفذ عليه . ثم خرج ، فلم يعد إليها ، ورجع القوم إلى مجلسهم ، فكان أكثر شغلهم فيه حديث مزيد معها والضجك منه (١).

السميرات اليونانيات

كان في بلاد اليونان فئة من الجوارى شبيهة كل الشبهة بهؤلاء . فئة تتألف من مجموعة كثيرة العدد من الفتيات البارعات

في جمالهن وأدبين وظرفهن ، يشاركن في كل علم ، ويأخذن من كل فن بطرف . ينعمن في البلاد اليونانية بحقوق وامتيازات لا تنعم بها النساء الحرائر . فهن يجلسن إلى الرجال سافرات الوجوه ، ويتحدثن إليهم ، ويحاورنهم في المواضيع الأدبية والفنية والفلسفية والعلمية ، ويستأثرن بعطفهم وحضورهم ساعات مديدة من النهار والليل ، وينظمن منازل خاصة بهن ، يستقبلن فيها الناس على اختلاف طبقاتهم ، وتعدد منازعهن وبلدانهم وأذواقهم وألوانهم . ويتفننن في تزيين خدورهن بالطرف والمتاع النفيس ، ويسهر القانون على راحتهن ، وينظم حياتهن ويشجعهن في عملهن .

مرد الأمر ، كما يرى بعض المؤرخين ، أن المشرع اليوناني ، عند ما أذن لهؤلاء السميرات باحتراف مهنتهن علناً ، على رغم ما تؤدي إليه تجارتهن من تهديم الأسر ، ونشر القوضى في المنازل الزوجية ، حاول القضاء جهده على عادة مفسدة تفشت في جميع المدن المغمرة في الترف ، أي التدله بالغلمان ، هذه العادة الهدامة التي تسربت فيما بعد إلى البلاد الفارسية ، ثم انتقلت من هناك إلى مدينة العرب . لعل هذا كان السبب الرئيسي في انتشار بيوت السميرات ، وفي محافظة الشرع عليها ، وذبوع هؤلاء الجوارى في الحياة الاجتماعية الإغريقية .

هن عادة نخبة تختار من جماعات الجوارى ، يعهد بهن صغيرات إلى نساء ماهرات فى تربية أمثالهن ، واقفات على أنواع الغواية ، وأسرار الفنون الحميلة ، ولا يفارقن معلماتهن إلا بعد أن يحذقن جميع ما يحتجن إليه فى حياتهن المقبلة .

يفد عليهن الفتيان الذين يطمحون إلى التعرف على ذوى المقامات الرفيعة ، ويتردد عليهن أيضاً الرجال الذين جازوا نصيباً من المقام ورجال الشرع والفلاسفة ، وكل من ينعم بدخل ثابت . فكل من له حظ من النفوذ ، أو يسعى ليكون له بعض المقام يحاول جاهداً أن يكون له مجلس فى منزل من منازل السميرات ، من الزعيم السياسى الوقور إلى الأفاك المغامر ، وما يتراوح بينهما من أجناس الأناسى وألوانهم . فتزدحم القاعات بالفيلسوف الزرى المظهر ، والتاجر الصورى ، والنوتى الجاف الطباع ، الملوحة الوجه ، الحشن اليدين ، الذى يحلى أصابعه القاسية بالخواتم الثمينة من صنع سورية وفينيقية ، والسرى الأحق الذى يضحي بثروته مقابل ابتسامة تنفرج عنها شفتا الغانية ، والمصارع المجدول العضلات الذى يحدث الصخب عن نتائج الأولياد ، ويمنى النفس بانتصارات باهرة فى مقبل الأيام . وكان اليونانيون ، وهم مشهورون بحب التطلع ، والوقوف على ما يجرى من الحوادث ، مغرمين بالوفود على مثل

هذه الاجتماعات حيث يتلاقى الشرق والغرب والرصانة المغالية في الائتاد ، والطيش المتطرف في التهور .

ينفق الضيوف في هذه البيوت على قدر استطاعتهم من مالههم ولطفهم في إيناس السميرات . ولم تكن الزوجات الشرعيات في فهم هؤلاء إلا الحافظات على المنزل ، القيات على المتاع ، المخلدات لاسم الأسرة بما ينجبته من الأولاد في سبيل الجمهورية الخالدة .

الحياة في مجالس السميرات زاخرة بالجديد من كل فن وعلم ، تمتاز فيها الأنغام بالرقص ، وتهرق الحمر المعتقد ، ويشيع فيها المرح ، وتضيق الفروق العرقية ، وتطلق الألسنة من عقالها ، ويتعالى دخان البخور ، وتسكب العطور على الوجوه والنحور ، وتبدى السميرات القليل الذي بقي خافياً من أسرار جمالهن . وتتشابك أحياناً أحاديث العلم بالجدل السياسي والفلسفي . والسميرات العارفات بفنون الكلام ، الحافظات لأشعار الأقدمين والمحدثين يوشين أحاديثهن بما في ذاكرتهن منها ، ويرتجلن أحياناً أبياتاً تناسب المقام ، مما يحول تلك المجتمعات إلى حلقات ثقافية نادرة المثال . ولهذا أسرف رجال الفكر والعلم واللغة في التردد على السميرات للتمتع بمطالعهن ، والإصغاء إلى ما يدور هناك من المباحث البارة .

كانت علاقات هؤلاء بالسميرات بريئة أحياناً ، لأنهن كن يحصرن قلوبهن وفتنهن الكاملة في الذين ينفقون عليهن الأموال ، ويبذلون في سبيلهن كل ما يشأن ، فيقضون القسم الأوفر من وقتهم في منازلهن ، ويشتركون في حلقات الطرب والأدب وينظرون إلى تراحم الضيوف حول ربة البيت وسعيهم إلى اكتساب عطفها ، دون أن تتأثر في نفوسهم أوتار الغيرة . فالسميرة كانت إذن كناية عن زوجة ثانية ، ولكنها أكثر علماً ، وأرشق حركة ، وأبرع جمالا من تلك التي تنزل في الخدر . وأبناؤها يتبناهم الرجل المسؤول . ويضمهم إلى أولاده الشرعيين .

مآدب السميرات

أهم الأدوار التي يقوم بها هؤلاء السميرات اشتراكهن في الاحتفالات والمآدب التي تختلط فيها فنون الغواية بالأدب الرفيع . والإسراف في الطعام والشراب بالبراعة في الرقص والألعاب البهلوانية . وفي الولائم يتناول اليونان أحاديث السياسة والفن والأدب وأخبار الفتوح ، ويفصلون النظريات الفلسفية الشائعة ، ويتناشدون القصائد ، ويبدى كل من الشرب أقصى ما في نفسه من براعة ، ليفتن الحاضرين ، ويسترعى انتباههم .

تقام الولائم عادة عند المساء في المنازل الخاصة، وتزين قاعة الطعام بالغصون الخضراء ، وتنثر الزهور على الأرض ، وتوقد الشموع ، وهي بشكل ثريات تقوم على عمد مركزة بالأرض على قاعدة مثلثة الأقدام ، وتضاء إلى جانبها سرج الزيت أو توزع في أنحاء القاعة . وعند ما يبدأ الضيوف بالوفود يقف العبيد والجواري عند المدخل لاستقبالهم والترحيب بهم ، فيترعون أخفافهم ، ويغسلون لهم أيديهم وأرجلهم في آنية من الفضة أو الذهب ، ويعطرونهم بالروائح الطيبة ، ويجعلون على رؤوسهم أكاليل الزهر .

من تقاليد هذه الولائم أن لا يتوجه المدعو رأساً إلى قاعة الطعام ، بل أن يبدأ بالتفرج على غرف البيت، إلى أن يصل عرضاً إلى المائدة ، فيبدي عندئذ إعجابه الشديد بما يراه من ترتيب وتنظيم ، ومن رياش فاخر ، وزهور عطرة ، وأنوار مشعة ، وأسرة منتظمة . ويتقدم فيأخذ له مقعداً حول المائدة ، وهي مستطيلة قائمة الزوايا من الخشب الصقيل ، عارية من الأنماط ، أما المقاعد فهي على أنواع : منها المفردة ذات المساند المرتفعة ، يرقى إليها المدعو بدرجة أو اثنتين ، ومنها المفردة البسيطة ، ومنها أسرة مستطيلة ، وهي عادة ثلاثة مقابلة لجهات ثلاث من المائدة ، وترك الرابعة لتقديم ألوان الطعام .

يتسع كل واحد منها لثلاثة أشخاص أو أربعة فيتمدد عليها المدعوون ، ويتكئون على الذراع اليسرى ، ويتناولون ما يشاءون باليمنى ، وتفصل بينهم مساند مغطاة بالنسيج النفيس الموشى . وقد اقتبس اليونان عادة استعمالها عن الشرقيين ، ولا يعرف تماماً تاريخ انتقالها إلى المنارل الإغريقية ، ومن الثابت أنها كانت شائعة في المآدب العامة أيام أرسطو . أما المدعوون المتقدمون في العمر أو الضخام الأجسام ، فكانوا يؤثرون الجلوس على المقاعد العادية أو البقاء وقوفاً .

يجعل بين أيدي المدعوين الممتازين كؤوس كبيرة محلاة بالذهب ومزينة بالنقوش ، وتثقل أحياناً من مدعو إلى آخر ابتداء من اليمين ، فيشرب كل منهم بدوره . أما الطعام فهو متعدد الألوان ، لأن الإغريق عرفوا جميع الطيبات التي يلد بها المعاصرون ، فتزخر موائدهم بلحوم الخنزير والجدي والعجل والأرنب والأوز والبط والدجاج والحجل والحمام والسمانى وسواها . غير أنهم لم يعرفوا السكر في صنع الحلويات والمربيات ، بل استعاضوا العسل عنه . وأما الخمور فكثيرة الأنواع لديهم ، يمزجونها أحياناً بالثلج الذي يستقدمونه من أعالي الجبال ، أو يدلونه في الجرار المملوءة به إلى أعماق الآبار الباردة .

لم تكن الأطعمة التي تقدم للزائرين سائلة ، ولا تستعمل

على الموائد إلا ملعقتان اثنتان كبيرتان ، يسكب بالواحدة الطعام في الأطباق ، وتغرف بالثانية الحمرة من الأباريق لتوضع في الكؤوس . يتألف الطعام في مثل هذه الولائم من ثلاثة ألوان : الأول من الخضر ، ولا سيما القنيط ، ومن الصدف والبيض ، والثاني من الطيور الداجنة وطرائد الصيد ، والثالث من الحلويات والسكريات والفواكه . وتقدم كل هذه الألوان مقطعة مجزأة ليسهل تناولها باليد ، لأنهم لا يستعملون الشوك والسكاكين . وعند تقديم اللون الثالث تبدأ المنادمة ، فتقبل عندئذ ، الجوارى الموسيقيات والمغنيات والراقصات ، وقد طلين وجوههن بالمساحيق ، وسودن عيونهن بالكحل ، وأطلن أشعار الجفون وصلبنها باستعمال مسحوق المسك ، وأخذن بأيديهن القيثارات والنايات فيبدأن بالرقص والغناء والضرب على الآلات أو النفخ فيها . وأشهر هؤلاء الجوارى هن اللواتي يلعبن على القيثارات الصغيرة ، ويرافقن نقرها بألحانهم ورقصهن . ولم يكن يتوصل إلى إجادة هذه المهنة إلا السميرات المدربات المخرجات على أيدي الاختصاصيين . يرتدين الأثواب الموشاة برسوم الزهر الخاصة بهن وحدهن ، وهي عادة أثواب شفافة . وكن رشيقات الحركة لمغالاتهن في التمرن والرياضة على فنهن ، بارعات في إبراز الهيئات المثيرة للشعور .

كانت الأجور التي تدفع لمن باهظة ، هذا إذا لم يكن ملك صاحب الدعوة أو صاحبها . ويعاونهن جوار من نوع آخر . ينتسبن عادة إلى جزر الأرخبيل أو إلى البلاد السورية ، فيرسمن بأقدامهن وكل عضو من أعضائهن في محيلة المدعووين صورة مثيرة . وتكاد ثيابهن المجزومة الشفافة لا تخفى شيئاً من أسرار أجسامهن . وفي غمرة ثورتهم الفنية يتوصلن إلى فك العقدة التي تضم شعورهن فتثّر سوداء على أكتافهن البيضاء ، وحل العقدة الثانية التي تربط الغلالة المطيفة بأجسامهن ، فيظهرن عاريات ، وينطحرن على رخام القاعة وهن في حالة من السكر الفني . وقد ترقص الجوارى أحياناً مترافقات حسبما يرغب المدعوون أو يشاركنهم بعضهم . وتقوم أخريات بحركات بهلوانية أثناء الرقص والغناء ، فيرقصن على لوحة من الخشب ، غرزت فيها رموس حادة من المعدن ، فيختلن بخفة بحيث لا يبدسن على المسامير ، وترافق الموسيقى الموقعة بجميع هذه الأنواع من الرقص . في هذا الجو المملوء بالعطور وروائح الحمرة والمساحيق والأطعمة كان الرجال يكشفون عن صدورهم ، يستلقون على الوسائد ، وأجسامهم تلمع من الزيت المعطر أو العرق المتصبب منهم ، وتقطر من شعورهم العطور المهركة عليها . وفي هذه الأثناء ، يتسرب إلى قاعة المأدبة أناس غرباء متطفلون ،

فيشتركون في الشرب والرقص والغناء .
 من عادة المدعوين الانصراف أحياناً إلى بعض الألعاب ،
 ولا سيما ذلك النوع الأثير عندهم في مثل هذه الحالات ، وهو
 يقوم على قذف ما تبقى في كؤوسهم من الخمر إلى ناحية في
 الغرفة ، متخذين من أحد الأوعية هدفاً لثمالاتهم ، فتمتلئ
 أرض القاعة بالشراب المسفوح . ويسيل إلى العتبة لأن السكارى
 يخطئون غايتهم .

عند ما يبلغ الخمار أوجه ، يتبارى الشرب في استمالة
 الراقصات ، فيتوزعنهن ، ويحدث أحياناً ما ليس من حلوته
 بد . ولا يطلب الذين غالوا في شربهم من هؤلاء السميرات
 إلا أن يقدمن لهم إناء يرجعون فيه ما طعموه وشربوه . وكل هذا
 يحدث أمام أنظار الجميع ، دون أن تثير هذه المشاهد أنفة
 أو خجلاً . وعند ما يتنفس الفجر يتسلل بعضهم إلى منازلهم ،
 ويبقى الآخرون غارقين في سبات عميق . وهذه المجالس كانت
 محرمة على الحرائر ، فتقتصر على الرجال والحوارى .

الجوارى فى الشرع

الرقىق الرومانى

قامت الحياة الاجتماعية فى مختلف المدن والبلدان والعصور على وجود طبقة من الرقيق ، ووجود سيد فاتح قاهر غنى ، وعبد مشتعف ذليل ، يكدر فى سبيل مولاه . وليس خلوج مجتمعنا من هذه الطبقة إلا حدثاً معاصراً لنا . لأن تحرير الرقيق أمر اضطرب به القرنان الثامن عشر والتاسع عشر ، ولا يزال فى كثير من بقاع العالم أثر من رق وبقية من استعباد ، وما انفكت بعض المنظمات العالمية ناشطة فى محاربة مثل هذه التجارة الراجحة .

أما المدن القديمة فقد أقرت الاستعباد ، ورأت فيه نظاماً طبيعياً لا قيام لحياة الفاتح والسيد إلا به ، فأخذت به الشعوب الغالبة ، وشرعت لهذه الطبقة من الناس قوانين تنظم حياتها ، وتحدد واجباتها ، ولا تعنى بحقوقها إلا فى القليل النادر .

ولم يكن لدى الرومان بادئ الأمر إلا عدد يسير من الرقيق .

غير أن الفتوح التي قامت بها جيوشهم فيما بعد أدت إلى الاستيلاء على عدد كبير منهم، وعرضهم في أسواق الرقيق بحيث بلغ ما حمله أحد القواد إلى بلاده مائة وخمسين ألفاً دفعة واحدة . وكانت جموع الرقيق رجالاً ونساء يدخلون المدينة الخالدة صفوفاً صفوفاً في مواكب القواد المظفرين . وبينهم كثير من بنات الملوك والأمراء والقواد المسيبات ، وقد بيع منهم في دبلوس الجزيرة اليونانية عدة آلاف في يوم واحد . ومنذ ذلك الحين انتشر الرقيق في المجتمع الروماني حتى طغى عدده على الأحرار بعد أن اشترى هؤلاء المئات والآلاف للقيام بما تطلبه الحياة الاجتماعية من أعمال . فيقيم المتعلمون وذوو الاختصاص بالموسيقى والغناء والطهي والخدمة قرب مواليتهم ، وينصرف ماتبقى منهم ، وهم الأغلبية الساحقة إلى الحقول فيعنون باستنباتها لحساب أسيادهم ، أو يعملون في المناجم ومقالع الحجارة أو المحارف . وتقوم النساء بما قامت به الجوارى من الأعمال في المدينة العربية فيما بعد .

كانت معاملة الرقيق في غاية السوء ، لأن الشرع الروماني يعرض له كما يعرض لشيء من الأشياء أو سلعة من السلع . فهو كما يقول مؤرخ لاتيني « آلة تجيد الكلام » إذا هفا هفوة صغيرة نزلت به أشد العقوبات ، كالضرب بالسياط والسجن . لهذا كانت الثورة تختمر في صدور هذه الطبقة ، فتنشب الحروب

بينهم وبين أسيادهم ، وتنتهى المعارك فى أغلب الأحيان بالفتك بهم وتعذيبهم ، وتسلبهم القليل مما حصلوا عليه من الحرية . أما إذا رضى السيد عن عبده فبوسعه أن يعتقه . فيتقيد العبد المحرر عندئذ ببعض العلائق بسيدته السابق شبيهة بحقوق الولاء عند العرب ، وينعم العبد المعتوق بحق التملك والتصويت ، ولكن أحفادهم وحدهم يصبحون مواطنين يتمتعون بامتيازات وحقوق الأحرار كاملة .

فى الشرع الإسلامى

أما فى الشرع الإسلامى فالجارية هى كل امرأة أخذت أسيرة فى الحرب ، أو نقلت قسراً من بلاد العدو ، على شريطة أن تكون غير مسلمة ، لأنه لا يجوز ، لأى سبب من الأسباب ، أن تسبى المسلمة وتسترق ، ولا عبرة فى ما ذهبت إليه جماعة القرامطة أو غلاة الخوارج ، أو هى التى تلدها أمة مملوكة ، ويكون أبوها عبداً ، أو غير مالك لها ، مسلمة كانت أم كتائية ، أو هى التى تؤخذ شراء من أسواق الرقيق ، فيبيعها فيها النخاسون . وهؤلاء ليس بوسعهم استرقاق المسلمات أو الكتائيات الذميات اللواتى يعود أصلهن إلى ديار الإسلام ، وإنما يأتون بالرقيق من البلدان الغربية ، ويتاجرون به . لأن

الإسلام حرم السبي منذ قضاائه على عادة الغزو المتأصلة في نفوس البدو. ولا شك أن الإسلام قد ارتقى بالمرأة ارتقاءً بيناً عند ما حفظ لها حريتها بتحريمه اختطافها. في حين أن الشرع الإسرائيلي يجيز لليهودي أن يستعبد يهودياً آخر لمدة معينة لا تزيد على ست سنوات ، إلا إذا ألح العبد على البقاء في كنف مولاه ، فله أن يحتفظ به . وقد جاء في سفر الخروج ما نصه : « إذا انتعت عبداً عبرانياً ، فليخدمك ست سنين ، وفي السابعة يخرج حراً مجاناً ، وإن دخل وحده فليخرج وحده ، وإن كان ذا زوج فليخرج وزوجه معه ، وإن زوجه مولاه بامرأة فولدت له بنين أو بنات ، فالمرأة وأولادها يكونون لمولاه ، وهو يخرج وحده ، وإن قال العبد قد أحببت مولاي وزوجي وبنى لأخرج حراً ، يقدمه مولاه إلى الله أو إلى مصراع الباب أو قائمته ويثقب مولاه أذنه ، فيخدمه إلى الأبد . وإن باع رجل ابنته أمة ، فلا تخرج خروج العبد ، وإن كرهها مولاه الذي خطبها لنفسه يدعها تفك ، وليس له أن يبيعها لقوم غرباء ، لأنه قد غلبها » (١) .

أحوالهن الشخصية

وضع أصحاب المذاهب الفقهية والمتشرعون قوانين تنظم حياة الجوارى وأحوالهن الشخصية ، وكل ما يعود إليهن من رق وعتق وزواج وطلاق . نتج عنها أن اللقيطة حرة في جميع أحكامها ومسلمة ، ولو كان ملتقطها ذمياً ، ما لم توجد في مقر أهل الذمة وكان ملتقطها غير مسلم . ففي الحالة الأولى تنشأ على الإسلام ، وتكون حرة ، وينفق عليها من المال الخاص باليتامى والمساكين . وتزوج وتنعم بجميع الحقوق المدنية العائدة إلى بنات جنسها ، دون أن تمس الحاجة إلى معرفة والدها ، والسبب في تركها على قارعة الطريق ، أوروها على أبواب المنازل . وفي الحالة الثانية ، أى إذا عثر عليها في منطقة يقطنها النصارى أو اليهود أو المجوس يعهد بها إلى طائفة الملتقط ، فتعنى بأمرها ، وتسهر عليها ، وتكون حرة مطلقة كجميع الذميات الحرائر .

أما الجارية التى تولد للمسلم من أمته فتكون حرة إذا اعترف بها والدها ، وفي مثل هذه الحالة يجب على المولى أن يكتب صكاً ليلحقها به ، ويكون نصه كما يلي :

« أقر فلان بأنه كان قبل تاريخه وطئ مملوكته التى بيده وملكه المقررة له بالرق والعبودية ، المدعوة فلانة ، الفلانية

الجنس ، الوطاء الصحيح الشرعى ، واستولدها ولداً (ذكراً أو أنثى) يسمى فلاناً ، الطفل يومئذ ، وهو الآن فى قيد الحياة ، وأنه من صلبه ونسله ، ونسبه لاحق بنسبه (١) .

فاذا ولدت الجارية لسيدها أصبحت أم ولد ، فلا يجوز بعدئذ أن يبيعها أو يهبها ، وتصبح حرة بعد موت زوجها ، فلا يرثها الوارثون ، ولا يستدها الدائنون . وهذا الوضع يخالف كل المخالفة ما يقره الشرع المسيحى من منع اقتراب الرجل من أمته ، لأنه يعد ذلك زنى صريحاً ، فيحمل الولد عار والده طول حياته ، وتخول الزوجة الشرعية أن تبيع الجارية أو تقصيها عن المنزل . ويخالف أيضاً الشرع الرومانى الذى يقرر أن المولود تابع لحالة الوالدة من حيث الرق .

والأولاد الذكور والإناث الذين يعترف بهم المولى المسلم يرثون والدهم أسوة بإخوتهم وأخواتهم الذين ولدوا من الحرائر . وكثيراً ما كان السيد يحرر أمته أم الولد ، ويتزوجها زواجاً شرعياً رفعاً من شأنها وشأن أولاده منها ، فتمتع بجميع الحقوق الخاصة بالزوجات الحرائر . وإذا ما حررت الجارية تمهيداً لعقد النكاح الشرعى فبوسعها أن ترفض الاقتران بمولاها السابق ، وعندئذ تخرج من عصمته ولا يحق له أن يعيدها إلى ملكه ، بل

تطلق حرة . من القيود التي فرضها الشرع في معاشره الجوارى ما فرض على الزوج من تحريم الاقتراب من أختين ، والأم وابنتها والعمة وابنة أخيها وغيرهن من ذوى الرحم المحرم ، جرياً على السنة المتبعة في النكاح الرسمي ، كما أنه حرم على رجلين أن يشتريا جارية فيقتربا منها معاً ، لأن الشرع يعاقب على مثل هذه الفعله ، ويعتبرها زنى صريحاً .

كان بعض الأحرار يتزوجون جوارى لسن ملك أبويهم ، بعد أن يدفعوا لأسيادهم الصداق المترتب عليهم . وفي مثل هذه الحالات يحدد الشرع الشروط التي يجب أن تتم في الحر الذي يود التزوج من أمة غيره . فيقضى أن لا يكون متزوجاً بجمرة ، وأن لا يكون لديه مال يكفي لصداق حرة ، وأن يتخشى عليه من التهور في حياة المحزون ، بحيث يكون هذا الزواج أخف مؤونة عليه من زواج الحرائر ، وأحفظ لنفسه ودينه ، ويكتب صك بهذا النص :

« هذا ما أصدق فلان فلانة مملوكة فلان ، المقره لسيدها بالرق والعبودية ، عند ما خشى على نفسه العنت — الفجور والزنا — أو خاف الوقوع في المحذور ، لعدم الطول ، وأنه ليس في عصمته زوجة ، ولا يقدر على صداق حرة على ما شهد له به من يعينه في رسم شهادته ، صداقاً تزوجها به مبلغه كذا وكذا ،

ولى تزويجها إياه بذلك سيدها المذكور بحق ولايته عليها
شرعياً .

ويذيل بالفقرة التالية التي تضاف على العقد :

« وشهدت البيئة أن الزوج المذكور فقير ليس له موجود
ظاهر ، ولا مال باطن ، ولا له قوة على نكاح حرة ، ولا في
عصمته زوجة ، وأنه عادم للطول (١) . »

أما إذا زوج السيد أمته لعبده فيكون النص كما يأتي :
« هذا كتاب تزويج أكتبه فلان لعبده فلان من أمته
فلانة ، المقر له كل منهما بالرق والعبودية ، وهو أنه أشهد
على نفسه أنه زوج عبده المذكور لأمته المذكورة تزويجاً
صحیحاً شرعياً بسؤال كل منهما لسيده المذكور في ذلك . وقبل
الزوج المذكور من سيده عقد هذا النكاح لنفسه قبولاً شرعياً .
وليس من اعتبار لإذن الأمة في مثل هذه العقود ، ولا يعين
الصداق ، لأنه يعود إلى السيد عند وجوده ، وفي مثل هذه
الحالات يكون الأولاد الناتجون عن الزواج ملكاً للمولى ،
يتصرف بهم وبوالديهما كما يريد . غير أن الشرع الإسلامى
قيد السيد في حرите بتحريمه التفريق في المبيع بين الزوج
وزوجته والوالدين وأبنائهما . . »

طبقاتهن

إذا ألقينا نظرة شاملة على الجوارى من حيث موقف الشرع
منهن رأينا أنهن ينقسمن إلى طبقات متعددة : منهن التى تسترق
طول حياتها ، ثم تباع أو تورث فيما بعد ، ومنهن التى يبيعها
مولاها أو يهبها فى حياته ، والتى تلد له فتتحرر بعده ، والتى
يوصى بعقدها حين وفاته ، فلا يجوز بيعها ، وتكتب لها الوثائق .
وكان بعض الأسياد يعتقدون جواريتهم أو عبيدهم مقابل مبلغ
يدفع لهم منجماً ، حتى إذا استوفى المولى القيمة المتفق عليها
أصبحت الجارية حرة ، وتسمى هذه الحالة المكاتبه . ويكون
العقد بالنص الآتى :

« كاتب فلان مملوكه (أو مملوكته) الذى بيده وملكه المقر
له بالرق والعبودية المدعو فلاناً ، الفلانى الجنس ، المسلم ،
لما علم فيه من الخير والديانة والعفة والأمانة ولقوله تعالى « فكاتبوهم
إن علمتم فيهم خيراً » على مال جملته كذا وكذا ، يقوم به منجماً
فى سلخ كل شهر كذا وكذا ويراؤه منه . . . وأذن له سيده فى
التكسب والبيع والشراء ، فتى أوفى ذلك كان حراً من أحرار
المسلمين ، به ما لهم ، وعليه ما عليهم ، لا سبيل لأحد عليه

إلا سبيل الولاء الشرعى ، ومتى عجز ، ولو عن الدرهم الفرد ، كان باقياً على حكم العبودية^(١) .

فإن وفى العبد (أو الجارية) مال الكتابة كتب ما مثاله :-
« أقر فلان بأنه قبض وتسلم من مملوكه فلان المسمى باطنه
جميع المبلغ المعين . . . وهو كذا وكذا على حكم التنجيم .
وصار ذلك بيده وقبضته وحوزه . فبحكم ذلك صار فلان حراً
من أحرار المسلمين على ما تقدم . ويؤرخ^(٢) . »

وإذا تزوج رجل حر أمة بغير إذن مولاهما يكون الزواج
ملغى ، لأن المولى هو المسؤول عنها . أما إذا أعتقها السيد بعد
العقد . فيكون التحرير إمضاء للزواج وإجازة له .

وللمولى أن يكره أمة أو عبده على الزواج بمن يريد . أما
الأمة فلأن نتائجها لمولاهما ، فهو إنما يعقد على ملك نفسه
بتزويجها ، وله ولاية العقد على ملك نفسه بغير رضاها كما لو
باعها . وأما العبد فللمولى أن يزوجه من غير رضاها فى شريعة
أبى حنيفة النعمان ، وليس له مثل هذا الحق عند الإمام
الشافعى .

(١) نهاية الأرب ج ٩ ص ١١٣

(٢) كتاب المبسوط لشمس الدين السرخسى - على مذهب أبى حنيفة

النعمان - مصر ١٣٢٤ هـ ح ٥ من ص ١٠٨ إلى ١٣٢

أما إذا تزوج رجل امرأة على أنها حرة ، ثم علم بعد ذلك أنها أمة قد أذن المولى لها بذلك فهي امرأته ، إن شاء أمسك وإن شاء طلق ، لأن ظهور رقها نوع من أنواع العيب ، غير أن ما ولد له منها فهو حر . وإن كان الزواج تم بدون تصريح المولى فلهذا أن يستردّها ويعقربها .

المراجع الإفرنجية :

Paul Allard, Exclavage, serfs et mainmortable, Paris 1883 - Clarisse Bader, La femme romaine, Paris 1877 - La femme grecque, Paris 1872 - H. Wallon, Histoire de l'esclavage dans l'antiquité, 3 vol. Paris 1879 - Arthur Weigall, Sappho de Lesbos, Payot, Paris 1932 - La beauté antique
 Encyclopédie de l'Islam

الفهرس

صفحة	صفحة	
٣٧	تكاثر من	الحدود العربي
	جوارى الحمامات	جنة العربي
٤٠	الحمامات	حدود الحمام
٤٣	استخفاء الحمامين	البياض المفضلة
٤٥	رجال الشرطة	السوداء المستلطفة
٤٧	الحمامات الريفية	الليل المنسدل
٤٩	خمارتا الواثق	الغلاميات
٥١	شروط الكمال	التجمل
٥٣	زينة الحمامات	الرفيق
٥٦	خداع الجوارى	مصادر الرقيق
	الجوارى المثقفات	رحلات النحاسين
٦١	تعليمهن	أنواع النحاسين
٦٣	الأدبيات الشواعر	أنواع الجوارى
٦٦	تخرجهن في الغناء	أسواق الرومان
٦٧	أثر الغناء	أثمانهن

صفحة	صفحة	
	٧١	سلامة وعامل المدينة
٩٧	٧٣	الأخذ عن النوايع
٩٩	٧٥	تلمذة معبد
١٠١		جوارى القصور
١٠٢	٧٩	أبناء الجوارى
١٠٦	٨٣	نفوذهم
	٨٦	أديانهم
١١٢	٩٠	والدة الأمير القسرى
١١٤	٩١	إخلاصهم
١١٦	٩٢	متيم
١٢٠		

وقى سلسلة **اقرأ**

المزيد عن المرأة

- نساء صغيرات للأستاذ مبارك إبراهيم
- نساء محاربات للسيدة صفوى عبد الله
- الصديقة بنت الصديق للأستاذ عباس محمود العقاد
- عائشة بنت طلحة للأستاذ كمال بسيونى
- العاشقة المتصوفة للسيدة وداد سكاكيني
- بنت قسطنطين للأستاذ محمد سعيد العريان
- المرأة فى شعر البحترى للدكتورة نعمات أحمد فؤاد



وفي سلسلة **اقرأ**

المزيد في مثل هذا الموضوع

- قصر الرشيد للدكتور طه الحاجري
- قطر الندى للأستاذ محمد سعيد العريان
- سيدة القصور للأستاذ علي الجارم
- نديم الخلفاء للأستاذ عبد الستار أحمد فراج
- شجرة الدر للأستاذ محمد سعيد العريان
- أمير قصر الذهب للأستاذ طاهر الطناحي
- قصة ملكة سبأ للدكتور زاهر رياض



تم طبع هذا الكتاب على
مطابع دار المعارف بمصر

دار المعارف بمط

تقدّم للأطفال والناشئة

المكتبة الخضراء للأطفال

تحفة القصص الخيالية العالمية

- يعتز بها الأطفال والناشئة لما فيها من متعة لعيونهم وقلوبهم.
- يعتز بها الآباء لما تقدمه لأطفالهم من غذاء صالح لعقولهم ونفوسهم.
- قصص ومغامرات طريفة، وصور بالألوان الجميلة الجذابة وطباعة فاخرة.

صدر منها :

- | | |
|------------------------|----------------------|
| ١ - أطفال الغابة | ٢ - سندرا |
| ٣ - السلطان المسحور | ٤ - القداحة العجيبة |
| ٥ - البجعيات المتوحشات | ٦ - الأميرة الحسنة |
| ٧ - الرفيق المجهول | ٨ - الأميرة والشعبان |
| ٩ - الملك أبو لحية | ١٠ - الأنف العجيبة |
| ١١ - البلبيل | ١٢ - الجميلة النائمة |
| ١٣ - عقلة الأصبع | ١٤ - عروس البحر |
| ١٥ - الأخوات الثلاث | |

ثمان النسخة من كل كتاب ١٥ قرشاً

0601509

Bibliotheca Alexandrina

دار المعارف